# المشرق

السنة الحادية والاربعون — كانون الثاني - اذار ١٩٦٧

# فنّ الطبخ و إصلاح الأطعمة

## في الاسلام

بقلم حبيب زيات

لما احتلّ العرب الشام ومصر والعراق لم يكونوا يدرون من اساليب معالجة المآكل الاّ ما كان اسهل متناولًا واعجل في سدّ الجوع واقرب الى الفطرة ، كخلط البرّ والشعير والدقيق والسويق والثريد والحساء باللبن الحليب والأَقِط والجبن والسمن والشحم والتمر ، وشيّ اللحوم على الجمر او انضاجها في القدور على الاثافيّ ، والاغتذاء بالكمأة النيئة وبعض الاعشاب والجذور التي تنبتها الارض عفوًا في الربيع . وفي كتب اللغة تعداد هذه الاطعمة الساذجة او الخشنة من امثال السخينة والعكيسة والربيكة والمضيرة ، مما لا يحسن في كل ذوق ولا يسوغ في كل حلق . ومن اطرف وصف وقفنا عليه لمآكل الاعراب ما حدّث به الاصمعي قال :[1]

---

1) معجم البلدان لياقوت طبعة (اروبة) ٣ : ٤٧٣ ؛ والمحاسن والمساوئ للبيهقي ١ : ٢٢٥

« قال بعض المشيخة : لقيت اعرابياً فقلت ممن الرجل ؟ قال : من بني اسد فقلت : من اين اقبلت ؟ قال : من هذه البادية . . . قلت : وما طعامكم ؟ قال : بخ بخ عيشنا والله عيش تملّل جاذبه وطعامنا اطيب طعام واهنؤه وامرؤه : الفث[١] والهبيد[٢] والفطس[٣] والعنكث[٤] والصلب[٥] والعلهز[٦] والذآنين[٧] والطراثيث[٨] والعراجين[٩] والحسلة[١٠] والضباب واليرابيع والقنافذ والحيّات . وربما والله اكلنا القدّ واشتوينا الجلد ، فما ارى ان احدًا احسن منا عيشاً ولا ارخى بالًا ولا اخصب حالًا . فالحمد لله على ما بسط علينا من النعمة ورزق من حسن الدعة . اوَما سمعت ما يقول قائلنا :

اذا ما اصبنا كل يوم مُذَيقةً　　وخمس تُميرات صغار كواتر
فنحن ملوك الناس شرقًا ومغربًا　　ونحن اسود الناس عند المزاهر
وكم متمنٍّ عيشنا لا يناله　　ولو ناله اضحى به جدُّ فاتر

ولكن لما قدم العرب بعد الاسلام على شعوب واقوام غُذوا بلبان الحضارة ونشأوا على لين من العيش ومعرفة بمرافقه مدة قرون متوالية في ظل دولتي الروم والفرس ، قلّدوهم تدريجًا في مآكلهم ومشاربهم وشاركوهم في التنعم بلذات المائدة والاستمتاع بطيبات الحياة . ولا تزال الى اليوم قواعد الطبخ الرومي والفارسي شائعة شاملة اكثر المدن الشرقية . ومن تفرغ لاستقراء الالفاظ

---

١) الفثّ : نبت له حب اسود يختبز ويؤكل في الجدب ويكون خبزه غليظًا كخبز الملة .
٢) الهبيد : حب الحنظل تأخذه الاعراب وهو يابس فتنقعه في الماء عدة ايام ثم يطبخ ويؤكل
٣) الفطس : حب الآس .
٤) العنكث : شجرة يسحجها الضب بذنبه حتى تنحاتّ ثم يأكلها .
٥) الصلب : ان تجمع العظام وتطبخ حتى يستخرج دهنها ويؤتدم به .
٦) العلهز : دم القراد والوبر يُلبك ويشوى ويؤكل في الجدب . وقال آخرون : العلهز دم يابس يدق مع اوبار الابل في المجاعات .
٧) الذآنين : جمع ذآنون وهو نبت اسمر مدملك لا ورق له لازق به .
٨) الطرثوث : نبت يؤكل يرتفع كالدرقة الملفوفة .
٩) العراجين : نوع من الكمأة قدر شبر وهو طيب ما دام غضاً ينبت كالفُطر يشبه الفقع .
١٠) الحسلة : جمع حسل وهو ولد الضب .

الاعجميـة التي نطقت بها ألسنة الطهاة والشعراء والادباء في عهد العباسيين والفاطميين كالبزماورد والبَنَندود والنمكسود والسنبوسج والطباهج والزيرباج والكردناج والسكباج والفالوذج واللوزينج والخشكنانج وسائر الالفاظ التي ألحقت بها الجيم ، يتضح له غلبة الفن الفارسي على الموائد العباسية ، منذ ايام البرامكة خصوصاً . وفي « كتاب الطبخ واصلاح الاغذية المأكولات » لابي محمد المظفر بن نصر بن سيار الورّاق ، المحفوظ بنقص قليل في خزانة اكسفرد ، طائفة كافية من هذه المستعارات يجدر باللغوي اليوم ان يتنبه لها لادراجها في محلها في ديوان تكملة المعاجم العربية الذي تشتد الحاجة اليه لكشف الغامض والدخيل من الفاظ الحضارة .

وقد فاتنا كل ما كتب وقيل عن الامويين في الصدر الاول ، فلا سبيل اليوم لمعرفة شيء يذكر من معيشتهم وتنقلهم بين القصور والبوادي ، ولا كيف كانوا يتنعمون في خلواتهم ومجالسهم ودعواتهم وموائدهم . ولا شك انهم اخذوا بنصيب وافر من الرسوم والآداب التي ورثوها عن المملكتين الرومية والفارسية . ويظهر انهم آثروا في الغالب اتباع الفن الرومي في معالجة البقول واللحوم ، واختاروا تناول البوارد والحلويات على الطرائق الفارسية ، وهو مـا يستدل عليه من قول الاصمعي : اختصم رومي وفارسي في الطعـام فحكما بينهما شيخاً اكل طعام الخلفاء . فقال : اما الرومي فذهب بالحشو والاحشاء ، واما الفارسي فذهب بالبارد والحلواء.[1]

وقد اضاف الخلفاء العباسيّون ورجالهم الى هذه التقاليد الاعجمية في المطاعم والمشارب صفات اخرى والواناً شتى وضعها لهم طُهاتهم واطباؤهم وشرابيُّوهم . وفي كتاب ابن سيّار الورّاق المشار اليه آنفاً قسم صالح منها عُمل للمهدي والرشيد وابراهيم بن المهدي والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمعتمد والمعتضد والمكتفي من الخلفاء ، وليحيى بن خالد البرمكي من الوزراء ، ولاسحق بن ابرهيم الموصلي وابن دهقانة من المغنّين والندماء . ومن هذه الصفات والشهوات يتضح

---

١) عيون الاخبار لابن قتيبة ٣ : ٢٠٤

ما احدثه عصر العباسيين من طرائف الطهاة والشرابيين والندماء، وما للكتاب المذكور من القيمة والمكانة في تاريخ فنّ الطبخ الاسلامي، والفائدة الجلّى في تعريف لغة الطباخة واوضاعها ومصطلحاتها التي اغفلتها المعاجم. وفيه ايضاً دليل بيّن على شدة انتشار هذا الفنّ بين طبقات الامّة وألفة الناس له حتى حذق فيه الخلفاء والوزراء والندماء والمتترفون والتجار والملّاحون وسائر العامة. والناس، كما قيل، على دين الملوك. وسنفيض في آخر هذه المقالة في وصف هذا الكتاب في ختام ما وقفنا عليه من اسماء المؤلفات الموضوعة في الطبخ عموماً.

وقد ادرك الخلفاء العباسيون وندماؤهم ما لفن الطبخ من الفضيلة والاثر الحميد في تعديل الامزجة واصلاح الاجسام والاستمتاع بملاذّ الذوق، فصرفوا اليه نصيباً من عنايتهم وراضوا نفوسهم عليه تظرّفاً وتطرّباً. فكانوا يتلهون بمعالجة بعض الاطعمة في مجالسهم والتناظر فيها لدى الخبراء لمعرفة المجيد المبرّز فيها. ومن ذلك ما حكاه الشابشتي في كلامه على دير الشياطين وتردّد عبادة اليه وكان عبادة هذا مخنّثاً من اطيب الناس واخفهم روحاً. كان ابوه من طبّاخي المأمون وكان معه فخرج حاذقاً بالطبيخ. ثم مات ابوه فتخنث وصار رأساً في العيارة والخلاعة. قال الشابشتي:

« جلس المأمون في بعض الايام وامر بان تحضر اللحوم والحيوان وما تحتاج
« اليه من آلة الطبخ. وقال للندماء ليطبخ كل واحد منكم قدراً. وطبخ هو ايضاً
« قدراً. وطبخ اخوه ابو اسحق قدراً. ففاحت لها روائح غلبت على روائح قدورهم
« طيباً وعطرية فعجبوا من ذلك وعبادة حاضر فحسده فقال: ان اردت ان
« تزيد في طيب قدرك فصبّ فيها سُكرّجة[1] كامخ. فاخذ سكرّجة كامخ كبَرَ

1) السكرجة في كتب اللغة هي الصحفة. ويظهر انها وردت بهذا المعنى في الحديث وانما يراد بها هنا الآنية التي توضع فيها انواع الكامخ اي التوابل والابزار والافاويه والملح والاصباغ. قال الجواليقي: فارسية معربة وترجمتها مقرّب الخل (المعرَّب ٢٠) فيكون اصل وضعها للخلّ ثم اتّسعت لكل ما يؤتدم به. ويشبهها في ذلك اللفظة الفرنسية huilier كانت قبلًا اداة للزيت ثم جعل فيها معه الخل والخردل والملح وما اشبه. وبقي عليها اسمها الاول. ولابن المعتز ابيات وصف فيها سلّة سكارج جمعت اشهر الكوامخ في ايامه نقلها المسعودي في مروج الذهب (بهامش الكامل لابن الاثير ١٠ : ١٩٥ - ١٩٦) فلتراجع.

« وصبَّها في القدر . فساعة صبّ السكرّجة فاحت لها روائح منتنة فقال المأمون :
« ويلكم ما هذه الروائح المنتنة فقال عبادة : رائحة قدر اخيك الطبّاخ . قال :
« ماذا طرحت فيها حتى عادت بعد الطيب الى هذه الرائحة ؟ فقال سكرّجة كامخ
« كبر اشار بها عبادة . فقال : اما علمت انك اذا ادخلت جسماً ميتاً على جسم حي
« افسده ؟ فحقدها المعتصم على عبادة . فلما ولي المعتصم امر بقتله . ثم قال : ما لهذا
« الكلب من القدر ؟ ما يُقتل ولكن انفوهُ فنُفي . »[1]

ومن ذلك ايضاً ما رواه المسعودي قال :

« يُحكى ان المأمون امر بعض خواصه من خدمه ان يخرج فلا يرى احداً
« في الطريق الا اتى به كائناً من كان من رفيع او خسيس . فاتاه برجل من العامة
« فدخل وعنده المعتصم اخوه ويحيى بن اكثم ومحمد بن عمر الرومي . وقد طبخ
« كل واحد منهم قدرًا . فقال محمد بن ابراهيم الطاهري : هؤلاء من خواص
« امير المؤمنين فأجبهم عما يسألون . فقال المأمون : الى اين خرجت في هذا الوقت
« وقد بقي عليك من الليل ثلاث ساعات . فقال : غرّني القمر وتمت تكبيرًا فلم
« اشك انه اذان فقال له المأمون : اجلس فجلس . فقال له المأمون : قد طبخ كل
« واحد منا قدرًا هوذا يُقدَّم اليك من كل واحد منها قدر فأخبِر عن فضائلها
« وما ترى من طيبها فقال : هاتوا . فقدمت في طبق كبير كلها موضوعة عليه
« لا يُميَّز بينها . ولكل واحدة ممن طبخها علامة . فبدأ فذاق قدرًا طبخها المأمون
« فقال : زه . واكل منها ثلاث لقمات وقال : واما هذه فكأنها مسكة وطباخها
« حكيم نظيف ظريف . ثم ذاق قدر المعتصم فقال : هذه والله فكأنها والاولى
« من يد واحدة خرجتا وبحكمة طُبختا . ثم ذاق قدر عمر وقال : هذه قدر
« طباخ ابن طباخ اجاد ما احكمه . ثم ذاق قدر يحيى بن اكثم فاعرض بوجهه
« وقال : شِه هذه والله جعل طباخها فيها مكان بَعلها . . . فضحك القوم
« ووصله المأمون باربعة آلاف دينار[2] . وقسط له على اصحاب القدور وقال : اياك

١) كتاب الديارات ٨٠ – ٨١

٢) يصعب جدًا التصديق ان المأمون اسرف هذا الاسراف في مكافأة عامي على حكمه في الطبيخ . والارجح ان يكون الاصل « اربعة آلاف درهم » وكثيرًا ما ترد الدنانير في

« ان تعود الى الخروج في مثل هذا الوقت مرة اخرى فقال : لا اعدمكم الله
« الطبيخ ولا اعدمني الخروج.»[1]

وجرى المعتصم على سنن اخيه المأمون في العناية بهـذا الفن والمنادمة عليه والتحكيم فيه، وهو ما اشار اليه المسعودي فقال :

« ذُكر ان المعتصم كان بالجوسق[2] يوماً مع ندمائه وقد عزم على الاصطباح
« وامر كل واحد منهم ان يطبخ قدراً . . . ودخل ابو عبدالله بن ابي دواد فما
« هو الا ان سلّم وجلس وتكلم حتى اسفر وجه المعتصم وضحكت اليه جوارحه.
« ثم قال له : يا ابا عبد الله قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدرًا وقد جعلناك
« حَكَماً في طبخها . قال: فلتُحضر ثم آكل ثم احكم بحكم بعلم. فحملت اليه
« القدور ووضعت بين يديه فجعل يأكل من اول قدر اكلًا تامًّا فقال له المعتصم :
« هذا ظلم قال: وكيف ذلك ؟ قال: لاني اراك قد امعنت في هذا اللون وستحكم
« لصاحبه . قال: يا امير المؤمنين عليَّ ان آكل من هذه القدور كلها كما اكلت
« من هذا القدر . فتبسم له المعتصم وقال له: شأنك اذًا . فأكل كما قال. ثم قال :
« اما هذه فقد احسن طابخها اذ اكثر فلفلها واقلّ كمونها . واما هذه فقد اجاد
« طابخها اذ اكثر خلّها واقل زيتها . واما هذه فقد طيّبها طابخها باعتدال توابلها .
« واما هذه فقد حذق من عملها بقلة مائها وكثرة مرقها حتى وصف القدور
« بصفات سرّ اهلها بها . ثم اكل مع القوم كما اكلوا انظف اكل واحسنه[3] » .

وكان قبل المأمون والمعتصم عمّهما ابرهيم بن المهدي عارفاً بقواعد الطبخ وله فيه مؤلف خاص ونُسَخ شتى من الصفات الواردة في كتاب ابن سيار . ولما زاحم المأمون على الخلافة وطُلب حثيثاً اختفى في بيت اسود حجام وحكى بعد العفو عنه خبر اختفائه فقال :

« خرج الاسود ومعه طبق عليه جميع ما يُحتاج اليه من خبز ولحم وقدر

---

الحكايات والاعطية في موضع الدراهم حبًّا بالتعظيم والاطناب .

١) مروج الذهب ٩ : ١٨ – ١٩

٢) الجوسق اسم احد قصور المعتصم في سامرّا .

٣) مروج الذهب ٩ : ١١٧ – ١١٨

« جديدة وآلتها وجرّة نظيفة وكيزان نظاف كل ذلك جديد. وقال لي : جعلني « الله فداك اني حجّام واني اعلم انك تتقذّر ما اتولاه فشأنك بما لم تقع عليه يدي. « وكانت بي حاجة شديدة الى الطعام فقمت فطبخت لنفسي قدراً لا اذكر اني « اكلت اطيب منها »[1].

وكان البرامكة ايضاً لا يجهلون فن الطبخ. ولما حُبس يحيى والفضل كتب الموكّل بهما الى الرشيد انى سمعتهما يضحكان ضحكاً مفرطاً جداً. فوجّه الرشيد يستعلم ذلك فقالا: « اشتهينا سكباجاً فاحتلنا في شرا اللحم ثم احتلنا في القدر والخلّ حتى اذا وصل جميع ذلك الينا وفرغنا من طبخها واحكمناها ذهب الفضل ليترلها فسقط اسفلها فوقع علينا الضحك »[2].

ومن هذه الحكايات وامثالها، مع ما دخلها دون ريب من ترويق السمّار ومبالغات الرواة، يتبين جليّاً ان فنّ الطبخ كان بالغاً أوجه في ايام العباسيين معروفاً حق المعرفة عند الخاصة والعامة، سائداً في القصور والدور والبيوت والاسواق تحكّم فيه الوزراء وعابرو الطريق لاقبال الناس عموماً على طيب المآكل والمشارب، ولذلك كثر سواد المترفين والمتأنقين وازداد عدد الأكلة الشرهين كأشباه ابن دهقانة القائل: « قد اكلت حتى زَمِنت واريد آكل حتى اموت. »[3]

وكانت الخلفاء تجزل مكافأة من جوّد الطبخ واحسن مذاقه حيث كان. ومما رواه المسعودي في هذا المعنى ما نقله عن الفتح بن خاقان قال:

« بصر المتوكّل بسفينة مشدودة بالقرب من شاطئ الخليج وملّاح بين يديه قدر كبيرة يُطبخ فيها سكباج من لحم بقر وقد فاحت روائحها فقال: يا فتح رائحة قدر سكباج والله، ويحك اما ترى مـا اطيب رائحتها؟ عليّ بها على حالها. فبادر الفراشون فانتزعوها من ايدي الملّاحين. فلما عاين الملاحون اصحاب السفينة ما فُعل بهم ذهبت نفوسهم فرقاً وخوفاً. وجاؤوا المتوكل بالقدر تفور كهيئتها. فوضعت بين ايدينا. فاستطاب ريحها واستحسن لونها ودعا برغيف فكسر

١) مروج الذهب ٩ : ٣٧ – ٣٨
٢) كتاب الوزراء والكتاب للجشياري ٢٠٩
٣) كتاب الديارات للشابشتي، نسخة برلين، ٩

منه كسرة ودفعها اليّ واخذ منه مثلها. واكل كل واحد منا ثلاث لقم. واقبل الندماء والمغنون فجعل يلقم كل واحد منهم لقمة من القدر. واقبل الطعام ووضعت الموائد. فلما فرغ من اكله امر بتلك القدر ففرّغت وغسلت بين يديه. وامر ان تملأ دراهم. فجيء ببدرة ففرغت فيها ففضل من الدراهم مقدار الفي درهم فقال لخادم كان بين يديه: خذ هذه القدر فامض بها حتى تدفعها الى من طبخها. وما فضل من هذه البدرة من الدراهم هو هبة له على تجويده طبخها. فكان المتوكل كثيراً ما يقول اذا ذكر قدر الملّاح ما اكلت احسن من سكباج اصحاب السفينة في ذلك اليوم.»[1]

ولا نعلم لاحد الشعراء والادباء وصفاً لموائد الخلفاء. ولاشيهم لنقف منه على مقدار ما كان يُقدّم عليها من الاطعمة والاشربة وتعداد ما كان يتتابع فيها من الالوان وانواع الحلوا. ويظهر ان العادة كانت جارية باستنهار الخليفة في ما كان يُهيأ لمن تقدمه من اللحوم والبقول والاخبصة والثمار في كل يوم ليرى فيها رأيه. ولما انتهت الخلافة الى القاهر بالله «عُرضت عليه صنوف الالوان والحلواء والفواكه التي كانت توضع بين ايدي الخلفاء كل يوم. فاستكثرها وقال في الفاكهة: بكم تباع هذه كل يوم؟ فقيل له: بثلثين ديناراً فقال: نقتصر من ذلك على دينار واحد، ومن الطعام على اثني عشر لوناً. وكان يُصلح لغيره كل يوم ثلثون لوناً من حلواء. فاقتصر على الكافي له»[2].

واذا كان القاهر بالله قد قنع من الاطعمة باثني عشر لوناً فكم كانت يا ترى الالوان التي كان يطلبها من سبقه من الخلفاء منذ ايام السفّاح؟[3] وهل يُعدّ بعد ذلك من الغريب ان يُتّهم بعض الخلفاء بالنَهَم والبطنة ازاء هذا الفضول

١) مروج الذهب ٩ : ١٢٠ – ١٢١

٢) صلة تاريخ الطبري لعريب ٢٨١

٣) ذكر المسعودي في جملة اخبار المهتدي بالله ان الخلفاء قبله كانت تنفق على موائدها كل يوم عشرة آلاف درهم فازال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤونه في كل يوم نحو مائة درهم (مروج الذهب ٩ : ٢٢٤) ويبعد جداً ان تكون مائة درهم كافية لمثل حاجات الخليفة ومؤونة مائدته وخدمه فلا شك ان في العدد المذكور تحريفاً او مبالغة في النقص رغبة في نسبة الزهد والتقشف للمهتدي بالله .

الطائل من الأطايب الحافلة ؟ وقد زعم القصّاص والمخرفون ان معاوية كان يقول: « يا غلام ارفع فوالله ما شبعت ولكن مَللت »[١] وحكوا ما شاؤوا في شره الخليفة سليمان بن عبد الملك وغيره من رجال بني اميّة.

ومن الخلفاء الذين كانوا معجبين بشهوات المائدة واستماع ما قيل فيها من الاوصاف والاشعار المستكفي بالله . نقل المسعودي عنه انه: « قال لندمائه في بعض الايام : قد اشتهيت ان نجتمع في مكان كذا وكذا فنتذاكر انواع الاطعمة وما قال الناس في ذلك منظوماً. فاتفق معهم على ذلك. فلما كان اليوم الذي حضر اقبل المستكفي فقال: هاتوا ما الذي اعدّ كل واحد منكم. فقال واحد: قد حضرني يا أمير المؤمنين ابيات لابن المعتز يصف سلّة سكارج كوامخ ( وانشد ١٥ بيتاً ) قال المستكفي : تُحضر هذه الجونة بعينها على هذا الوصف. وهاتوا فليس نأكل اليوم الّا ما تصفون. فقال آخر من الجلساء: يا أمير المؤمنين لمحمود بن الحسين الكاتب المعروف بكشاجم في صفة سلّة بوارد ( ٢٤ بيتاً ) فقال المستكفي: احسنت واحسن القائل في ما وصف. ثم امر باحضار كلّ ما يجري وصفه مما يمكن احضاره. ثم قال هاتوا من معه شيء في هذا المعنى ؟ فقال آخر : في هذا المعنى لابن الرومي في صفة وسط ( ١٧ بيتاً ) وقال آخر: يا امير المؤمنين لاسحق بن ابراهيم الموصلي في صفة سنبوسج ( ١٥ بيتاً ) فقال آخر لمحمود بن الحسين بن السندي كشاجم الكاتب في وسط هَلْيون ( ١٢ بيتاً ) فلما فرغ منها قال له المستكفي : هذا مما يتعذّر وجوده في هذا الوقت بهذا الوصف في هذا البلد ؛ الّا ان نكتب الى الاخشيد محمد بن طغج يحمل الينا من ذلك من الِعر من دمشق فانشدونا في ما يمكن وجوده . قال آخر: يا امير المؤمنين لمحمد الوزير المعروف بالحافظ الدمشقي في صفة ارزيّة ( ٥ ابيات ) فقال آخر : يا امير المؤمنين أنشدت لبعض المتأخرين في هريسة ( ١٦ بيتاً ) وقال آخر : يا امير المؤمنين لبعض المتأخرين في صفة المضيرة ( ١١ بيتاً ) فقال آخر: يا امير المؤمنين لمحمود بن الحسين في صفة جوذابة (٩ ابيات) وقال آخر:

---

١) الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ، مطبعة الموسوعات ، ٩٨

يا امير المؤمنين معي لبعض المحدثين في صفة جوذابة اخرى ( ٦ ابيات ) وقال آخر : يا امير المؤمنين لمحمود بن الحسين كشاجم في صفة قطائف (٧ ابيات)[1].

على ان مثل هذه العناية بالموائد لم تكن لتنسي الخلفاء ان الداء اكثر ما يكون من الطعام او الشراب . ولذلك كانوا يَكلون الى اطبائهم الاشراف على ما يقدّم لهم من الاطعمة وتنحية ما لا يوافق امزجتهم او يسبب لهم مضرة. وربما أُلّفت لهم المؤلفات الخاصة في الطبيخ كالذي وُضع للمعتضد بالله ، كما سيجيء.

وقد سبق معاوية كل الخلفاء في استحضار طبيب له على مائدته والاصغاء الى نصائحه روى ليث الدين احمد بن عيسى بن ابي الفتح السمرقندي باسناده الى العتبي قال :

« حجّ معاوية وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم . فلما قدم المدينة « هيّأ له مروان طعاماً فاكثره وجوّده . فلما حضر الغداء جاء متطبب نصراني « لمعاوية فوقف . فجعل اذا مرّ لون قال : كُلْ يا امير المؤمنين من هذا . واذا « أُتي بلون ظنّ انه لا يوافقه قال : لا تأكل من هذا. ثم اقبل زنجيان مؤتزران « بريطتين بيضاوين يدحلان بجفنة لها اربع حلقات مترعة حيساً . فلما رآها معاوية « استشرف لها وحسر عن ذراعيه فقال الطبيب : اي شيء تريد يا امير المؤمنين « قال : اريد والله أُواقع ما ترى قال : امزّق ثيابي . قال : ولو مزّقت بطنك . « فجعل يدبل مثل دبل البعير ويقذف في جوفه حتى اذا نهل قال : يامروان ما « حيسكم هذا ؟ قال يا امير المؤمنين عجوة ناعمة وأَقِطَة مُزينة وسمنة جُهنية « قال هذه اشفية جُمعت ، لا كما يقول هذا النصراني »[2].

وكان الرشيد يوجب على طبيبه حضور طعامه . قيل ان الموائد قدمت بين يديه في بعض الايام ، وطبيبه جبرئيل بن بختيشوع غائب . قال ابو سلمة « فامرني الرشيد بطلب جبرئيل ليحضر اكله على عادته في ذلك فلم ادع منزلاً من منازل الولد ومن كان يدخل اليه جبرئيل من الحُرَم الا طلبته فيه ولم اقع له على اثر .

---

١) مروج الذهب ١٠ : ١٩٥ – ٢٠٢

٢) كتاب تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ، لكمال الدين بن الفوطي ، طبعة الهند ، سنة ١٣٥٩ (١٩٤٠) ص ١٨ – ١٦

فاعلمت امير المؤمنين بذلك. فطفق يلعنه ويقذفه، اذ دخل عليه جبرئيل.»[١]

وكان الامين نظير الرشيد لا يأكل ولا يشرب الا باذن جبرئيل بن بختيشوع[٢] وخدم يوحنا بن ماسويه المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل قال سليمان بن حسان: «كان ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئاً من اطعمتهم الا بحضرة يوحنا بن ماسويه. وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشات المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء. وفي الصيف بالاشربة الباردة الطابخة المقوية والمعاجين.»[٣]

واقتدى بالخلفاء الملوك والامراء حتى قلّ من لم يكن له طبيب مشارف على المائدة «وفي سنة عشر ومائتين (٨٢٥م) كان عبدالله بن طاهر بدمشق واتفق في اليوم وفاة الحكم بن ابي الحكم الدمشقي الطبيب فطلب عبدالله متطببه في وقت غدائه فلم يصب احداً منهم فسأل عنهم فأخبر بوفاة الحكم وحضورهم جنازته. فعاتب عبدالله متطببه ايوب بعد منصرفه على تركه حضور طعامه فاعتذر ايوب بوفاة الحكم واعلمه... انه عُمّر مائة سنة وخمس سنين.»[٤]

ومشى على هذه الخطّة امراء المغرب فكان الطبيب اسحق بن عمران يشاهد اكل زيادة الله بن الاغلب امير افريقية «فيقول له كُل هذا ودع هذا»[٥] وقد لا تخلو بعض الاخبار المنقولة في هذا الباب من بعض المبالغة كالتي وردت عن سيف الدولة في ترجمة الطبيب عيسى الرقّي قال عبيدالله بن جبرئيل: حدثني من اثق به ان سيف الدولة كان اذا اكل الطعام حضر على مائدته اربعة وعشرون طبيباً. قال وكان فيهم من يأخذ رزقين لاجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم. وكان من جملتهم عيسى الرقي المعروف بالتفليسي... كان يأخذ اربعة ارزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين.»[٦] ومن شقاء العلم ان تفوتنا معرفة ما كان يأخذه الاطباء الثلاثة

---

١) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ٢ : ٣٤

٢) إخبار العلماء باخبار الحكماء للقفطي، طبعة السعادة، ٩٨

٣) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ١ : ١٢٨، واخبار العلماء ٢٤٩

٤) اخبار العلماء ١٣٢

٥) عيون الانباء ٢ : ٣٦

٦) عيون الانباء ٢ : ١٤٠

والعشرون الباقون من الارزاق على ما كانوا يتعاطونه في خدمة سيف الدولة من الفنون والعلوم في ما عدا الطب. وهذه مأثرة لسيف الدولة لم ينبّه عليها احد من الشعراء بحضرته ولم يشر اليها فيما بلغنا احد ممن اشاد بامارته ودوّن اخباره وسيرته. وفي كتاب اخبار العلماء للقفطي ان عيسى الرقي كان يعرف باسم التفليسي لا التفليسي، وانه كان يأخذ ثلاثة ارزاق لا اربعة، رزقاً للنقل من السرياني الى العربي ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين (ص ١٦٦) ويبعد جداً ان لا يكون في جملة هذه العلوم النقل من اليوناني.

ولا ريب ان كل الملوك والامراء الذين زاحموا العباسيين واقتطعوا معظم املاكهم قلدوهم في آيين موائدهم. وكان عضد الدولة فناخسرو بويه اذا حضر الوقت الذي رسمه بالاكل فيه استدعاه فاصاب منه وطبيب النوبة قائم على رأسه وهو يسأله عن شيء شيء من منافع الاغذية ومضارها[١].

ومن النوادر التي تجدر بالذكر هنا وتوضح كيف تقدّم كافور عند الاخشيد واستولى اخيراً على امارة مصر ما حكاه ابو الفرج البالسي[٢] طبيب الاخشيد قال:

« اشتهى الاخشيد بَقْرِيّة فعملت له وكان رسمي اذا قدمت المائدة اليه « ان اقف في طريق الطعام فاشرف على كل لون يُقدّم فأردّ ما أرى رده واصلح « ما اراه وارسله اليه فجاوزوا ذلك اليوم بالبقرية فكشفتها وازلت منها ما يصلح « ازالته. فاخذها كافور بيده وادخلها اليه ولم يكن رسمه ان يحمل طعاماً. فلما « خرج قلت له: ما يزيدك الله الا رفعة فقال لي: كانت شهوة مولاي لها قوية « فاحببت ان ادخل انا بها فلما رفعت المائدة دخلت اليه وسألته عن اكله فقال « لي: كانت البقرية طيبة واكلتها شهوة فايش اعجب ما كان فيها! قلت: « يقول الاخشيد ايده الله قال: حملُ كافور لها وحياتك يا ابا الفرج لا جلس

---

١) ذيل تجارب الامم، لظهير الدين الروزراوري، ٤١، والمنتظم، لابن الجوزي، طبعة حيدر اباد، ٧ : ١١٥

٢) في الاصل المطبوع « الباسي » ولا شك انه هو هو البالسي الذي ذكره ابن ابي أصيبعة في جملة الاطباء المصريين، وورد في مكان اسمه وكنيته بياض في النسخة المطبوعة، وذكر عنه انه ألف لكافور كتاب التكميل في الادوية المفردة (عيون الانباء ٢ : ٨٦)

« في هذا المجلس غيره ولا اخذ هذا المال سواه .»[١]

ولا بأس ان نضم الى هذه النادرة ملحة اخرى تعلل ايضا نجاح كافور وتشرح كيف توصل الى مرضاة مولاه بخدمة شهواته على المائدة ، والكلام هنا على منزلة فنّ الطبخ قديمًا وفي الاستطراد الى هذه النكتة اشارة الى بعض الالوان المصرية التي تدخل في ابواب هذا الفن ، وهي ما حدَّث به كافور قال:

« ركب الاخشيد ثم قال لي : ارجع فقل لهم يصلحون المائدة ويكون « اول ما يقدمونه حماضية . قال كافور : فجئت الى صاحب المائدة فقلت له : اول « ما تقدم حماضية فقال : والله ما اصلحت حماضية فقلت : انا لله عز وجل فقال : « كم عليك واصلح لك الساعة حماضية ؟ قلت : مائة دينار . قال : فاجمع لي كل اترج « عندك . فجمعناه واستخرج الحماض فالقاه في الحصرمية وطرح فيها ماء الورد « والمسك والافاويه . فلما جاء الاخشيد قدمتها اليه فاكل منها واكثر وقال : « طيبة والله فقلت : هي والله تقوم عليَّ مائة دينار . فقال : كيف ؟ فحدثته فقال : « ايتوني بالطباخ فقال : تأخذ من غلامي مائة دينار ؟ رُدَّها فردها فاعطاها « غلامًا وقال له : ادفعها الى الطوّاف[٢] الذي يطالبنا . قال فقلت للاخشيد : « فانت اخذت المائة .»[٣]

وقد فات المؤرخين وصف موائد الخلفاء الفاطميين ، ولم ينقل عن احد منهم انه جارى الهاشميين في احسان فن الطبخ علمًا او عملًا ولم يتميّز به فيما نعلم احد ممن خلفهم على ملك مصر من الايوبيين والمماليك سوى الملك الصالح صلاح الدين ابن الملك الناصر محمد . قال المقريزي في اخبار سنة ٧٥٥ / ١٣٥٤ :

« عمل السلطان الملك الصالح لخوندتطلو ملك امّه مهمًا طبخ فيه الطعام « بيده . . . شدّ في وسطه فوطة ووقف فطبخ الطعام في هذا المهم بنفسه ومدّ « السماط بين يديها بنفسه .»[٤]

١) المغرب في حلى المغرب ٣٦
٢) في الاصل المطبوع « الى الطوائف » وهو غلط ظاهر .
٣) المغرب ٣٦
٤) السلوك في اخبار الملوك . خزانة باريس ١٧٢٧ ص ١٨ والمهمّ هنا لفظة مولّدة بمعنى الصنيع والدعوة

وقد تضافرت الدلائل على ان فنّ الطبخ كان شائعاً في عهد الفاطميين وله من الاعتبار والشأن ما لا يقلّ عما كان له في العراق، لكثرة المواسم والاعياد التي كان يُحتفل بها في مصر ويجلس فيها الخلفاء للناس وتُمدّ لهم فيها غرائب الاسمطة ونوادر الاطعمة. واشتهرت قصور الفاطميين بكثرة من تعلم فيها من الجواري الطباخات «ولهنّ في الطبخ صناعة عجيبة ورئاسة متقدمة»[١]. ولعل مصر فاقت بغداد ايضاً بين انجب فيها وخرج منها من حذاق الطباخين والطباخات حتى استفاض لها في الشرق شهرة مترامية. وحسبك ان نصر الدولة احمد بن مروان الكردي، صاحب ديار بكر الذي مات سنة ٤٥٣/١٠٦١، بعد ان قضى ايامه ولياليه في طلب اللذة والنعيم وكانت «تزيد قيمة آلات مجلسه على مائتي الف دينار»[٢]، لما اراد ان يبلغ طهاته اقصى الغاية في اجادة الطبخ لم يفكر في بغداد وهي اقرب اليه بل «ارسل طبّاخيه الى مصر ليتعلموا انواع الاطعمة.»[٣] وكان للجواري الطبّاخات خصوصاً القدح المعلّى في الإتقان والإبداع حتى تنافس الناس فيهنّ وحرصوا على الاستكثار منهنّ ودخلن في جملة هدايا الملوك والسلاطين. ففي سنة ٦٦١/١٢٦٢ جهز الملك الظاهر بيبرس رسل بركة قان وارسل معهم هدية سنيّة جليلة المقدار... فيها خدام حبش وجوارٍ «طبّاخات»[٤] ولذلك كان عشّاق المائدة في الشرق لا يرغبون في غير الجواري المصريات، حتى الفرنج انفسهم ولعلّ بعض النساء الصليبيات اخذن عنهنّ اسرار الطبخ المصري في جملة ما اخذنه من تقاليد الحضارة الشرقية وازيائها. وقد اتفق يوماً للامير اسامة بن منقذ ان مرّ بانطاكية ويحضر مائدة احد الفرسان فيها ووصفها بقوله:

«جئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في اول خروج
» الافرنج وقد اعتفى من الديوان والخدمة وله بانطاكية ملك يعيش منه
» فاحضر مائدة حسنة في غاية النظافة والجودة ورآني متوقفاً عن الاكل فقال:

١) الخطط للمقريزي، مطبعة النيل، ٢ : ١٨٩

٢ و ٣ روضة المناظر لابي الوليد محمد بن الشحنة، بهامش الكامل لابن الاثير، ١٢ : ١٩ – ٢٠

٤) ذيل اليونيني على مرآة الزمان، خزانة اكسفرد Poc. 132 f° 7²

«كل طيب النفس فانا ما آكل من طعام الافرنج ولي طبّاخات مصريّات ما «آكل الا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم خنزير.»[١]

وكانت الجواري الطباخات بمصر تعدّ بالمئات في بيوت الوزراء والاغنياء وممن عُرف بالاستكثار منهن لتناهيه في طلب الاطعمة الفاخرة الوزير الصاحب فخر الدين ماجد بن خصيب، قال المقريزي: اخبرني الوزير الصاحب تقي الدين ابن ابي شاكر انه كان في دارهم من جواري الخصيب جاريتان تحسن كل واحدة منهما ثمانين لوناً من التقالي سوى بقية الوان الطعام وبلغت عدة جواريه سبعمائة جارية[٢] وهو لا يكاد يُصدَّق. وكفى بمثل هذا الاحسان والتفنن فخرًا للطبيخ المصري، لولا ما انتابه من ضياع علومه دون ان يقيّض لها من يجمع انواعها وصفاتها ويخلدها في بطون الاوراق على نحو ما فعل نصر بن سيار الوراق في مآكل الخلفاء العباسيين.

وقد بقي في مصر في ايام الملك الاشرف بن الملك العادل بقية من جواري الخلفاء الفاطميين. قال مؤلف كتاب الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب «صفة كمك حافظية كانت تعمله الحافظية جارية جدي الملك العادل» وقال في كلامه على الكباد والمخلل المراكبي: نقلته من دار السلطان الملك الكامل من جواري الخلفاء القصوريات (دار الكتب المصرية رقم ٧٤ علوم صناعية ص ٥٦و٦٧).

ولذلك يجب ان يُعدّ من اكبر الارزاء في تاريخ متوائد مصر فقدان «كتاب الطعام والادام في صفة الوان الطعام وما يقدّم على الخوان» في الف وخمسمائة ورقة لابي عبدالله محمد المسبّحي[٣] لما اودعه فيه دون ريب من الفوائد والنوادر كعادته في ما صنفه او جمعه من كتبه. ومن المصنفات التي تعادله في استحقاق التحسّر على ضياعها لقلة عناية الوراقين بتوفير نُسَخها «كتاب اخبار الزمان للمسعودي» وفيه «ذكر صنوف الشراب والاستعمال لانواع النقل اذا وضع

١) كتاب الاعتبار ١٠٢ - ١٠٤

٢) السلوك للمقريزي، باريس ١٧٢٧، ص ٣٤

٣) المغرب في حلى المغرب ٩٨

في المناقل والاطباق ووصف جميل للذات الطبيخ مما يحتاج التابع الى معرفته والاريب الى قيته من المتولدات في معرفة الالوان ومقادير التوابل والابزار وانواع المحادثات وغسل اليدين بحضرة الرئيس والمقام عن مجلسه وادارات الكاسات ... وما قيل في الاكثار والاقلال من الشراب وما ورد في ذلك من الاخبار »[1]. وكل من عرف فضل المسعودي وطالع تصانيفه ووقف على نوادره وكثرة محفوظه وسعة رواياته وحسن اختياره وطيب احاديثه واستطراداته يدرك مقدار الخسارة التي لحقت تاريخ الحضارة الشرقية بضياع كثير من كتبه.

وفي كتاب التذكرة لابن حمدون في الباب السادس والاربعين : « اخبار الاطعمة وتوتها » ولها نظائر واشباه في كتب الادب. ومما يدخل في معناها وان لم يكن مقتصراً على فنون الطبخ، كتاب « الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب » لابن اخي الملك الاشرف ومنه نسخة في المكتبة الملكية المصرية واخرى في الخزانة الظاهرية بدمشق.

وهذه اسماء ما وقفنا عليه من اسماء المصنفات القديمة في الطبيخ تلقطناها من كتب التراجم والوفيات وكتابي الفهرست وكشف الظنون :

- كتاب الطبيخ لابرهيم بن المهدي ( الفهرست لابن النديم، طبعة مصر، ٤٤٠)
- كتاب الطبيخ او كتاب إصلاح الاغذية لابن ماسويه ( الفهرست ٤٤٠)
- كتاب الطبيخ لابرهيم بن العباس الصولي « ٤٤٠)
- كتاب الطبيخ لعلي بن يحيى المنجم « ٤٤٠)
- كتاب الطبيخ لجحظة « ٤٤٠)
- كتاب السكباج له ايضاً « ٤٤٠)
- كتاب الطبيخ لاحمد بن الطيب السرخسي الفه للمعتضد وضعه على الشهور والايام « ٤٤٠)
- كتاب الطبيخ للحارث بن بُسْخُنَّر « ٤٤٠)
- كتاب الطبيخ لنطاحة ابي علي احمد بن اسماعيل بن الخصيب الانباري « ١٨٠)

١) مروج الذهب ١٠ : ٢٨ - ٣٩

– كتاب الطبيخ ليحيى بن ابي منصور الموصلي (الفهرست طبعة اوربة ص٣٢٣)
– كتاب الطبيخ للرازي ( « « ص٣١٧)
– كتاب اطعمة المرضى له ايضاً ( « « ص٣١٧)
– كتاب الطبيخ لاحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (ارشاد الاريب ٢: ١٦٠)
– كتاب البذيخ على كتب الطبيخ مجلد على اربعين باباً كلها في طبخ انواع الاطعمة وقواعدها ( كشف الظنون ١: ١٩٣ )
– كتاب المُعِزّي في الطبيخ أَلَّفهُ موسى بن العازر الطبيب للمعزّ لدين الله الفاطمي ( عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ٢: ٨٦ )
– كتاب كنز الفوائد في تنويع الموائد مجهول المؤلف
( رقم ١٨ علوم معاشية في المكتبة الملكية المصرية )
– رسالة في انواع الاطعمة وكيفية طبخها للشيخ تاج الدين بن زكريا بن سلطان الهندي النقشبندي ( كشف الظنون ١: ٥٤٢ )
– كتاب وصف الاطعمة المعتادة ولا يعلم مؤلفه وهو في وصف المآكل والالوان في عهد المماليك ومنه نسختان بالتصوير الشمسي
( رقم ٥١ و٥٢ في المكتبة الملكية المصرية )
وجاء فيه ذكر القاضي محيي الدين البيلقاني(ص١٤٥). وقال في آخره هذا ما وقع عليه اختياري في هذا الكتاب (ص٢٦٥)يتلوه ما يأكله المرضى والرهبان والنصارى في الصيام من كتاب ابن عبدون(ص٢٦٦–٢٦٩)
– الفية الطعام نظمها الشيخ عامر الانبوطي من شعراء مصر، في القرن الثاني عشر، معارضاً بها الفية ابن مالك، واولها :

يقول عامر هو الانبوطي احمد ربي لست بالقنوط
واستعين الله في الفيـّة مقاصد الاكل بها محوية

( مقالة لاحمد باشا تيمور، مجلة المجمع العربي ٦: ٢٥١ )
– رسالة كيمياء الطبائخ ليعقوب الكندي ذكر فيها الوان لحم تطبخ بغير لحم وقلايا كبود من غير كبود ومخ من غير مخ ونقانق وطرزين من غير لحم وعجة من غير بيض وجوذاب من غير ارز وحلاوة من غير عسل ولا سكر والوان كثيرة من غير عناصر يطول شرحها لا يهتدي اليها

الطباخون[1] وهو العلم المعروف بعلم المزوَّرات .

واما الكتب المطبوعة فلم نقف منها الا على كتاب واحد وهو :

– كتاب الطبيخ لمحمد بن الكريم الكاتب البغدادي ، طبع في الموصل سنة ١٩٣٤ ، بعناية الدكتور داود الچلبي .

ووقعت الينا بدمشق كراسة في خمس صفحات ونصف صفحة فيها :

– كتاب الطباخة لجمال الدين يوسف بن عبد الهادي الصالحي الدمشقي المتوفى سنة ٩٠٩/١٥٠٣ ، نشرناه سنة ١٩٣٧ في الجزء الثاني من الخزانة الشرقية (ص ١١٢ – ١١٨) مرتباً على حروف المعجم وفيه اوصاف مآكل طبقة خاصة من اهل دمشق في القرن العاشر للهجرة.

وفي دواوين الشعراء العباسيين قصائد ومقطعات شتى في اوصاف الاطعمة والالوان ، كالتي نقلها المسعودي في مروج الذهب في اخبار المستكفي بالله وقد سبقت الاشارة اليها . وما عدا المؤلفات الخاصة التي سردناها آنفاً ، توجد فصول ومقالات وابواب شتى في كتب الطب القديم تبحث في علم الاطعمة والمزوَّرات من فروع علم الطب ، وتذكر احياناً تراكيب الاطعمة بالاجمال من اللحوم والاسماك والبقول والحبوب والفواكه وما لها من الخواص والمنافع والمضار ، اذا تتبعها المؤرخ يقف فيها على صفات ووصايا تصلح للسليم والعليل ، ويجدر ان تدرج في سلك الالوان النافعة للابدان ، وقل ان يخلو منها كتاب طب مجموع فضلاً عما فيها من اسماء قديمة لبعض البقول والحبوب والاثمار التي كان يتغذى بها قبلاً وفي مراجعتها ودرسها فائدة للنباتي والزارع. ومن امثال هذه المصنفات الطبية القديمة استخرج ابن سيَّار الوراق بعض ما استوعبه في كتابه من الاطعمة والاشربة.

وقد سبق القول ان هذا السفر الفذّ محفوظ في خزانة اكسفرد . ولا نعلم ان احداً نبّه على ما له من قدر ونفاسة. ولا يكاد يشوبه الا سقوط جانب من اوراقه ، وهي بعض الباب الاول ، وبعض الباب الحادي والثلثين والمائة ، وكل الباب الثاني والثلثين والمائة . وبسقوط ختامه غاب عنا تاريخ انجازه او

---

١) معالم القربة في احكام الحسبة لابن الاخوة ١٠٧

نسخه فلا ندري منهما شيئاً . وعلى كل حال يتبين من نوع القلم المخطوط به انه قديم وربما لم يتأخر كثيراً عن زمن مؤلفه على جهلنا به؛ وقد اعيانا البحث عنه فلم نهتدِ الى اشارة او ترجمة له فيما تناولته يدنا من مطبوع او مخطوط . ومن حسن التوفيق ان الخروم التي فيه لم تكن تشتمل على شيء من صفات المطاعم والمشارب فهي كاملة مستوفاة، وبسلامتها سلم جوهر الكتاب . وقد عددنا صحائفه الباقية فاذا هي ١٦٨ في كل صفحة منها ١٩ سطراً . وكثيراً ما ترد الكلمات فيها غير معجمة او غير تامة الاعجام، فلا بد للقارئ، فضلاً عن العلم، ان يكون له بعض الالمام باللغة الفارسية والألفة بمصطلحات كتب الطب وحفظ الصحة لادراك معنى ما يمرّ به من بعض الالفاظ والمسميات التي لم ينبَّه عليها في كتب المولّد والدخيل ولم يرد لها تفسير في احد المعاجم . وعندنا ان هذا الدرس والاستطلاع يفوق بجدّته وعائدته لذة المتشهي لغرائب الاطعمة السلطانية لما يجد فيه من المعونة على استقراء لغة الطباخة ، وهي جزء من لغة الحضارة بعد الاسلام التي اخلّ اللغويون بتقييد اوابدها وشواردها والاشارة الى مدلولاتها وحقائقها . ويمكننا اليوم ان نستدرك ما فاتنا من لغة الطبيخ ومفرداته بمطالعة هذا التأليف الفريد الجامع لكل ما كان يؤكل ويشرب منذ الصدر الاول للاسلام في قصور الخلفاء والوزراء والرؤساء ومنازل الاوساط والعامة من ضروب الاغذية حتى « ما يأكل النصارى من الطعام المزوّر في الصيام » . وهو ما يضاعف الرجاء في طبعه وخدمة الفن الشرقي بنشر فرائده، اذا نشط لها بعض المتأدبين او الوراقين رغبة في احياء مآثر السلف وقد اعترف بها بعض مؤلفي الفرنج في علم الطبخ فقال ان هذا الفن كالتمدن قد جاءنا من الشرق .

وقد رأينا حبّاً بالتنويه بهذا الكتاب والتشويق اليه ان ننقل هنا نص مقدمته وسياقة ابوابه بالحرف ، مع ما ينغّص لذة مطالعتها من الملل والسآمة، لاستكثار المؤلف من السجع السخيف في غير محله . قال بلفظه ورسمه :

« الحمد لله الواحد القهار الملك الجبار المحتجب عن الابصار خالق الليل والنهار والفلك الدوار المحيي للبلاد والعباد والمنفرد عن الاضداد المتنزّه عن

الصاحبة والاولاد ولا حول ولا قوة الا به وهو العلي العظيم الغفور الرحيم وصلى الله على محمد المنتجب وامته المنتجبين وسلم عليهم اجمعين

سألت اطال الله بقاك ان اؤلف لك كتاباً اجمع لك فيه الواناً من الاطعمة المصنوعة للملوك والخلفاء والسادة الرؤساء. وقد عملت اطال الله بقاك كتابا شريفا ومجموعاً ظريفا مشتملاً على منافع الابدان ودافعاً لمضار الالوان يجمع كل الالوان المشويّة والمطبوخة من اللحوم المسموطة والمملوحة وجميع البوارد من الاطيار والاسماك من الانهار بعد ان تصفحت ايدك الله كتب الفلاسفة القدماء. وحكايات المتكلمين الحكماء. فوجدتها بعيدة الامد كثيرة العدد وعلمت ان الكثير من الخطاب يضجرك وان اليسير من الصفات يقنعك فعمدت الى الجمهور من خاصة الاشياء. فانترعته والى الصحيح من الطبيخ فاثبتّه وألغيت الاكثار من الخاصيات والاطناب في الصفات بعد الاستيفاء للمعنى المشار اليه والقصد المعول عليه واغنيتك عن النظر في الكتب المؤلفة للقدماء. الفلاسفة في اصلاح الاغذية من المأكولات المقوية وعن النظر في الكتب المصنفة وعمل الاشربة الملطفة ( ٣٠ و ٣٥ ) وعن النظر في الكتب المتخذة في عمل الاشربة والانبذة وعن النظر في المجموعات من الجوارشنات والمعجونات وابتدأت في اول هذا الكتاب بعلل الطبيخ ومما يكون فساده ووصفت بعد ذلك صلاحه والآلة المتخذة له وتكون صلاحها والآلة التي تفسد وتغير وما يطيّب القدر ويعبقها من الابازير التي لا بد منها وما يُذهب الاحتراقات والزهومات وذكرت ما يصلح لاصحاب الطبائع والمزاجات من الوان الطبيخ المصنوعات وقوى الاغذية وذكرت قوى اللحم من سائر الحيوان واصناف الطير وقوى اعضاء الحيوان بعد ذلك ووصفت تركيب الالوان المطبوخة والمشويّة والمكبّبة والمقلوّة وطبائعها في انفسها وخصائص الحلوى وطبع كل نوع منها وذكرت اصناف السمك واتبعته بانواع البيض وذكرت طبائع الحبوب واجزاءها وخصائصها وتركيباتها واحوال الخبز المخبوز والسويق المشروب وذكرت طبائع البقول المُلقاة في القدور والموضوعة على الموائد وذكرت طبائع الالبان ومنافعها للابدان وما يعمل منها من حليب وحامض

ورائب ومخيض وذكرت الابازير اليابسة التي يطيّب بها الطبيخ وما يلقى في القدور من الطيب وما يلقى فيها من الفواكه وخاصية الخردل وعمل الخل المنعنع وتطييب الملح وصنعته وخاصية البزماوردات واصناف اللقانق والمحشوّات ووصف خصائص الكواميخ والمخلّلات واصناف الزيتون وخاصية الصباغات وذكرت بعد ذلك ما يؤكل من الفواكه قبل الطعام وتدبير المطعم والحركة قبل الطعام ودفع ضرر الاغذية اذا وجدت بالادوية وذكرت بعد ذلك صنعة البوارد من الطير والمطجّنات والبوارد من السمك وعمل الصباغات والمقور من السمك والطيور وصنعة انواع الالبان وعمل الكواميخ والأجبان وصنعة الصلايق واسماءها والبوارد من البقول واللحان والصلاقات من الاطراف وترتيب الالوان على طبقاتها حلوها وحامضها وباردها وحارّها وما يقدم منها اولاً اولاً والحلوى بعد الطعام وشرب على الموائد وفي المدام ومنفعته ومضرته للاجسام وتدبير المشروب وطبائع الفقّاع وصنعته والشراب المسكر وخاصيته ودفع ضرره اذا وجد له ضرر والشراب غير المسكر وصنعته والمعجون ومنفعته والعسل الساذج والزيبق المعالج وختمت هذا الكتاب بوصف ما يغسل به اليد من المحلب والأشنان ومنفعته ومضرته للفم وللاسنان وخاصية الاذخر والسعد والبنك المختّر وعمل المحلب وتحميص البنك والادب في غسل اليدين من الغمر قبل الطعام اذا حضر وتدبير النوم بعد الطعام وذكر منافعه للاجسام وجعلت ذلك ابواباً معروفة وفصولاً موصوفة لتتم الفائدة وتكمل المعرفة وارجو ان يكون موفياً على طلبتك وغير مقصّر عن محبتك ولم أخل كل باب من ابوابه من خبر غابر وشعر سائر يشبه ما قدمنا وصفه وابتدأنا بذكره والله الموفق للرشاد والمؤيد بالسداد ولا قوة إلا بالله العظيم

## ترجمة ابواب الكتاب

لا البوارد من الاطيار من قبل الطعام الحار
لب عمل المطجّنات من الطيور المسمّنات
لج صنعة البوارد من السمك الطري ومن المالح البحري
لد صنعة الصباغات للاسماك المشويات
له صنعة الصباغات للفراريج الكردناجات
لو صنعة المباعر المحشوّات واللقانق والسنبوسجات
لز صنعة المقور من السمك والطيور
لح عمل الخردل اللطيف والخلّ الحرّيف
لط عمل الالبان والشواريز والاجبان
م عمل الكواميخ والمخللات والزباتين والصحنايات
ما الاعلام المعمول من لحوم الضان والعجول
مب عمل البوارد من اللحمان من الوحش والضان
مج صنعة الصلايق وانواعه واسمائه وطباعه
مد صنعة الصلاقات من اطراف الجدا والخراف
مه صنعة البوارد من البقول وعملها من اطراف الاصول
مو ما ياكل النصارى من الطعام المزوّرة في الصيام
مز عمل الخل والزيوت بالثريد والخبز المفتوت
مح عمل الماء بالملح والصباغ بالخردل الفج
مط عمل السكباجات والثرائد والملبّنات
ن عمل المرايس والأرزّيات والخيطيات
نا عمل الارزيات الملبّنات الساذجات
نب عمل الخيطيات الملبّنات
نج عمل الاسبانخيات والكرنبيات
ند عمل الفجليات والثلجميات
نه عمل المخلوطات من الارزّيات واللوبيائيات
نو عمل الديكبريكات والسواذج الكوفيات
نز عمل الزيرباجات والابراهيميات
نح عمل الحماضيات والرمانيات
نط عمل الاسفيذباجات الصفديات والمخضّرات
س عمل الهِقلات السواذج والمربيات
سا عمل الثريد المفتوت بماء الحمص والباقلى المنبوت
سب عمل الحصرميات والبستانيات
سج عمل الكشكيات الموصليات والبابكيات
سد عمل المدسيات الصفر والجلبلبات

سه عمل اللوبيانيات والجلبانيات
سو عمل الطفشيل من الحبوب والبقول
سز عمل النارباجات الحلوات والمحمضات
سح عمل السماقيات والمارونيات
سط عمل المضاير المفقودات والمضاير القطفيات
ع عمل المصليات والقنبريسيات
عا عمل المشوقات والترجسيات
عب عمل البناطيات من الاطيار المطبوخات
عج عمل الترجسيات الصيفيات والشتويات
عد عمل المنسومات السواذج والمخلّلات
عه عمل اللُهوَجات من اللحوم المجلّات
عو عمل البصليات والهاشميات
عز عمل الجزوريات والبينات
عح عمل المقلوبات واللحوم المدقوقات
عط عمل المُجَج المدوزات والمخلوطات
ف عمل الانجذانيات والكسرويات
فا عمل اللخشات المتخذات بالصباغات والرخبيات
فب عمل الميلين بالدجاج واللحم السمين
فج عمل الثرائد الشاميات والثرائد الملبقات
فد عمل القلايا باللحوم والألايا
فه عمل الكشتانيات المطيبات والمتمريات
فو عمل الطباهجات الرطبات واليابسات
فز صفة الشوى في التنور وشيّ اللحم في القدور
فح في شيّ الجدا والخراف المحشوة الاجواف
فط شيّ الشرائح من اللحم الطري والمالح
ص الكردباج على النار من لحوم الاطيار
صا صفة التنوريات والقُدُر المغمومات
صب الجوذابات تحت الشوا السواذج وبالحلوى
صج عمل الفالوذجات المعقودات والملتكات
صد عمل الخبيص الرطب بالسمن والزيت العذب
صه عمل الخبيص من التمر ومن التفاح والجزر
صو عمل الخبيص بالجوز والسكر واللوز المقشر
صز عمل الخبيص المفتوت بغير نار الملتوت
صط (كذا) عمل السحميات والمهلبيّات

ق عمل اللوزينق اليابس والمفرّق
قا عمل الزلايات السواذج والمشبكات
قب عمل الخشكنانج والابواسحاقي والمرّج
قج عمل القطايف بالسكر واللوز والجوز والصنوبر
قد عمل الترايين على الحلوا والتحاسين
قد (كذا) عمل الطرايف من انواع الناطف
قه ما يتغذى به العايل الجسم من الامراق واللحم

## انقضى ذكر الطبيخ والحلوا ويليه ما يعمل للدوا

قو ما يتغذى به المعلول من مزوّرات البقول
قز ما يوافق اصحاب النزلات من الاحساء والحريرات
قح عمل الامراق من الحبوب للعليل المكروب
قط ما يتغذى به اصحاب اليرقان من الشبوط والبنان

## ذكر المشروب

قي تدبير الماء المشروب المزمّل وبالثلج المضروب
قيا خاصية الماء المبرّد بالهواء
قيب ذكر الانتفاع بشرب الفقاع
قيج عمل الفقاع المختار الساذج وبالابزار
قيد طبع الانبذة والاشربة المتخذة
قيه في دفع ضرر الشراب للجسم ذي الاضطراب
قيو الشراب غير المسكر وطبع الساذج المبزّر
قيز عمل الاشربة من الالبان من الابل والبقر والضان
قيح عمل الاشربة المطفية للحرارة الملهبة
قيط عمل الاشربة من الداذي وعصير الاعناب
قك عمل الانبذة العسلية والانبذة الزبيبية
قكا عمل النبيذ من السكر والفانيذ
قكب عمل الاشربة من القرع والجزر والرازن وقضبان الكبَر
قكج عمل الاشربة من الفواكه الرطبة
قكد عمل المَيبة من الاشربة المطيَّبة
قكه عمل المريات من الربوب والجوارشنات
قكو عمل الارباب من الثمار المجتناة من الاشجار
قكز طبع ما يغسل به اليد من الاشنان والسعد

تمت ترجمة ابواب الكتاب بحمد الله ومنه

ومن مطالعة هذه الابواب وحدها تتبين قيمة هذا الكتاب الشامل كل ما يتعلق باوصاف الاطعمة والاشربة بين علم وعمل ووصف وصناعة وطب وعلاج وصحة وتدبير ولهجة ولغة ، على ما تخلل هذه اللغة من بعض اللحن والالفاظ العامية ، فهو من خير ما وضع في تعريف فن الطبيخ وتاريخ الموائد وآدابها وملاذها في الاسلام .

# الاسكندرية في اواخر القرن الثاني للمسيح [1]

بقلم الاب كلود مونديزير اليسوعي
استاذ العلوم التاريخية في جامعات ليون الكاثوليكية

## الاخلاق والحياة الاجتماعية في الاسكندرية على عهد الرومان

اننا نشهد اليوم في الشرق، كما نشهد في الغرب، تطورا في المدنيات سريعاً ومن نواح اخرى فاجعاً، بحيث لا يسوغ لنا صرف نظر اي كان، لا سيا النخبة المثقفة، عنه الى الاهتمام بابحاث عقيمة، او بتأمل الماضي تأملاً نظرياً لا ثمرة منه، ولكن ألسنا على يقين من ان هذا الماضي يحمل في طياته قلقاً يشبه ما نحن فيه، ومبادئ لا تزال خصبة، وحافزاً لنا فعالاً في ما نواجه من مهام. ولولا هذا الامل لما باشرنا هذا البحث عن الاسكندرية في القرن الثاني.

وفي النظر الى هذه الحقبة من الزمن عبرة فريدة: فما هو بالزمن الذي شهد ظهور المسيحية، بل هو ذاك الذي انبثقت فيه ونمت شيئاً فشيئاً، بفضل جهد بعض الرجال، والاحتكاك بالثقافة اليونانية كما تكيفت في الاسكندرية، عهد الامبراطورية الرومانية، تلك المدنية المسيحية التي عاش عليها شعوب البحر المتوسط الى يومنا هذا، وعلى الاخص تلك المدنية المسيحية الشرقية التي بلغت اوجها في بيزنطية، ثم تنحت او توارى بعضها في وجه التمدن الاسلامي فيما بعد، ولكنها لم تتلاشَ تماماً البتة. وسيتناول بحثنا مدينة الاسكندرية، عاصمة العقل والروح، في القرن الثاني للمسيح، وفي قلب الامبراطورية الرومانية يومَ كانت هذه الامبراطورية لا تزال باسطة جناحيها من اعمدة هرقل الى نهر الفرات. في تلك المدينة وفي ذلك العهد، كان نخبة من رجال الفكر

١) عن محاضرتين ألقيتا في «معهد الآداب الشرقية» باللغة الفرنسية، وستصدر هذه الابحاث في كتاب على حدة.

يتساءلون بكل وضوح فيما اذا كانت المسيحية لا تناهض مجرى الحياة، فردية كانت ام مدنية، ام بشرية، وفيما اذا كانت لا تحد من جهاد الانسان، اقتصادياً كان ام فكرياً، ام فنياً، وفيما اذا كانت تتجه الى الجميع دون ما التفات الى الفروق السياسية او الاجتماعية او العنصرية، وفيما اذا كان الاتفاق قائماً بين كتابها بحرفه ورسالتها بروحها، وفيما اذا كانت تقيم للانسان مركزاً في الكون، وفيما اذا كانت البشرية، في هذا الكون، عندها، كلّاً متسقاً او غباراً من الافراد، وفيما اذا كان لدين المسيح ان ينهج السبيل لكل مسعى في الحياة ام عليه ان يلزم ناحية منها حيياً خفياً.

يوم اخذت المشكلة المسيحية تفرض ذاتها على الجميع، كان لا بد من معرفة بل تقرير ما اذا كانت المسيحية، كما شكاها موريس كروازيه، احد كبار مؤرخي الثقافة اليونانية، «تضع عقل الانسان وفكره ناحية تفوق طبعه عاملة على ملاشاة كل ما كان انسانياً» ام اذا كانت، وفقاً لرأي مؤرخين مرموقي المكانة من امثال كيمون، قادرة على خلق ثقافة انسانية جديدة، وبنوع خاص على تسهيل النهضات الوطنية كتحرير لغة، واحياء ادب او فن جديد، مما لا بد منه لقيام مدنية، ويمكنها ان تزيد، احياء طقوس محلية كالقبطي والسرياني والبيزنطي.

ولن ننصرف في بحثنا هذا الى اللاهوت ولا الى الفلسفة، وحسبنا ان نتوقف حيناً على صفحات من تاريخ الفكر والاخلاق، من خلال كاتب هو اكليمنضوس الاسكندري، جمع الفن الى العلم، من ناحية الادب، وكان، من ناحية الفكر، في زمنه، مجدداً جريئاً، حريصاً على حقوق التفكير الشخصي حتى في موضوع الدين، ولكن على ذكاء. وثقافة حالا بينه وبين الاعراض عن ماضٍ مجيد؛ ومن خلال اثار تعدّ من اسس الفكر المسيحي الشرقي. وقد ذكر رادماخر، المؤلف الالماني المعاصر، ان اكليمنضوس هو اول من بحث في قضية الثقافة الانسانية المسيحية، ونظر اليها من كل نواحيها وبما تستحقه من اهمية واول من حاول حلها. ورأى لاهوتي انكليكاني ان هذه الآثار هي اول حلقة من سلسلة لاهوت الكنيسة الشرقية، وما أحجم عن تلقيب صاحبها «بابي جميع المتصوفين».

وبعد، فقد حان لنا ان نلج الموضوع. وسنقتصر في هذا البحث الاول على البيئة الاسكندرية، في اواخر القرن الثاني للمسيح، فندرس حالتها الاقتصادية والسياسية، الاجتماعية والبشرية، الفكرية والدينية، مما يمهد لنا السبيل الى استعراض بعض قضايا عمرانية في ابحاثنا المقبلة.

ان نحن شئنا ان نطلع على ما كانت عليه مدينة الاسكندرية، في آخر القرن الثاني، فلا بد لنا من الرجوع الى التاريخ. بناها الاسكندر، لخمسة قرون خلت من العهد الذي ندرس، على الارض القائمة على مصب النيل، بين الشط وجزيرة فاروس وبحيرة ماريوتيس، وفقاً لرسوم وضعها المهندس دينوقراطس. وما لبثت المدينة ان قامت ونمت، بشوارعها المتوازية المتعارضة، واحيائها المحددة، على مثل تلك المدنية اليونانية القائمة بالترتيب والتحليل والتنظيم... المستقلة ماضياً حافلاً بالفن والادب والسياسة والاجتماع، المستغنية بما لديها من خيرات عن خلق الجديد.

ثم مات الاسكندر فانتقلت المدينة الى يد البطالسة ومنها الى يد قيصر (سنة ٣٠ ق م) واصبحت، في مطلع عهد المسيحية، المدينة الثانية في العالم الروماني، تنافس عاصمته روما. واصبح لها مرفأ عظيم، وفقاً لما ذكره المؤرخ سترابون، منه تتجه الى روما مقادير من القمح (مقدار ثلث استهلاكها) ومنتوجات المدينة من البردي والزجاج والاقمشة وبضائع اخرى تمر فيها كالجلود، والبخور، واطياب بلاد العرب، وأفاويه الهند. ومع هذه البضائع كانت تسافر كذلك، دون ما رقيب، الوان من الاخبار والحكايات والعقائد الغريبة.

ولم يكن شعب الاسكندرية اكثر تجانساً من البضائع التي تمر فيها، فانك تلتقي فيها الى جانب العناصر الثلاثة الهامة من يونان ويهود ومصريين، عدداً كثيراً من سكان شواطئ المتوسط، من الافريقي، الى العربي، الى الفارسي، الى الهندي، الى المرسيلي، الى الاسباني، الى غير هؤلاء جميعاً من المسافرين والمهاجرين، فتبدو لك المدينة ملتقى سبل البشرية، ولحمة بين عالمين ما التقيا في غيرها الا على تجاهل او تخاصم تفصل بينهما حواجز الطبيعة (من جبال وبحار وفيافٍ) او حواجز اقامتها يد الانسان وقامت بحراستها جنود لا

تضمر الا العداء لما يبدو على افقها.

واما عدد سكانها، فلا شك في انه لم يبلغ عدد سكان روما، وان فاق عدد سكان انطاكية. وربما قدره البعض بالمليون ولكنه، على رأي اكثر المؤرخين، لم يكن يربي على الخمسمائة الف، وهو عدد ليس باليسير في العصور القديمة. بين هؤلاء السكان التاجر، والصانع البحري، والموظف الروماني، والطالب، ورجل الثقافة، وبينهم عدد وافر من الاغنياء (اليونان خاصة) يقوم بخدمتهم العبيد من كل امة، وبينهم رجال العمل، في المؤسسات، من الوطنيين خاصة.

وكان اليهود وافري العدد يشغلون اثنين من احياء المدينة الخمسة، ويؤلفون، على ازدراء الرومان واليونان لهم، طائفة قوية لها نظامها الخاص بما فيه حاكمها (وقد تقلد هذا المنصب احد اخوة فيلون الفيلسوف) ومجالسها وامتيازاتها وجنسيتها، كما كان لليونان جنسيتهم. بل ان الاسكندرية اصبحت بعد خراب اورشليم (سنة ٧٠) عاصمة اسرائيل المشتت، ويهودها كانوا قوماً كثيري الحركة، ميالين الى الفتن بل الى الثورات، مما حمل السلطة والجيش المحتل على مجابهتهم بالشدة، ولكنهم، على كل حال، كانوا يؤلفون عنصراً متميزاً، منفصلاً عن عامة السكان بقدر ما كان متعلقاً بناموسه وتقاليده.

اما اليونان، سواء بينهم المتنقلون والمقيمون — وقد مضى على بعض اسرهم اجيال في المدينة — فكانوا يعتبرون انفسهم في الاسكندرية السكان الاصليين. فباني الاسكندرية يكاد يكون هلينياً، وبفضل صناعتهم قامت المدينة. وكانوا يقطنون، متفاخرين، حياً خاصاً في المدينة: البروكيوم، وان لم يعد للفظة «البرابرة» على لسانهم ما كان لها من معنى التحقير على لسان قدمائهم اذا عنوا بها الفرس. بسعيهم قامت المؤسسات التجارية والصناعية، ومنهم كانت تتألف طبقة «البورجوازيين» التي تميزت بها المدن اليونانية.

وكما كان الاسكندريون رجال عمل في التجارة والصناعة، كانوا كذلك هواة ملاهٍ ولذائذ: من سباق الخيل، الى الموسيقى، الى الرقص، الى غير ذلك من اللذات الاحط قدراً والاقرب متناولاً، والتي عرفت عند المؤرخين

من امثال كوينتليانوس « بلذات الاسكندرية » . ولم تكن تنقصهم في ملاهيهم خفة الروح، ولا الميل الى التهكم، وما نجا من لسانهم لا عمال الرومان ولا الامبراطور نفسه. لكن هذه النزعة ، وان مستقبحة اذا لم تقف عند حد ، انما تنمّ عن تيقظ الى النقد ورغبة في التفكير الشخصي ، كانا مؤاتيين لتآلف الفلسفة اليونانية والمسيحية في بيئة ثقافتها غنية.

وفيما ابسط امامكم ميل الاسكندريين الى الموسيقى والرقص ، اودّ بهذه المناسبة ، ان الفت نظر الطلاب الى مقال ظهر ، خلال السنوات الاخيرة ، في مجلة خاصة بدرس اللغات . فلقد تحدث فيه الاستاذ كولار Collart ( وقد توفي من مدة قريبة ) عن الطرب واللهو ومحترفي الرقص في الاقاليم بعصر الرومانية. وتنهض التفاصيل الرائعة التي أدلى بها دليلاً ساطعاً على ولع المصريين في العهد الاغريقي بالمشاهد التمثيلية، ولا سيما بالموسيقى والرقص، وان ما يقوله عن الاقاليم يصح تطبيقه على العاصمة ، كما يؤكد الكاتب ذاته.

ولا تسل عن كثرة « الزمّارين » في مصر. فقد كانت في اغلب الاحيان القرية الواحدة تزخر بعدد وافر منهم حتى ان بعضهم غدوا اساتذة لامعين مثل جوليوس ايروس الذي عاش في الاسكندرية في اوائل القرن الاول للميلاد . وكثيراً ما عهد اليه في تدريب تلاميذ حتى يجيدوا هذا الفن اجادة تامة.

من الناحية السياسية حسبنا ان نقول ان حكومة الرومان قد توصلت ، بعد حكومة « البطالسة » التي دب فيها روح الانحطاط ، الى ان تعيد ، على الاقل خلال القرنين الاولين او القرون الثلاثة الاولى، النظام والادارة الحسنة يؤازرها دون شك جيش دائم يقيم قسم كبير منه في الاسكندرية ويحط احياناً من انفة السكان الوطنية.

سوف يتاح لنا ، في المحاضرة المقبلة ، ان نضرب امثلة حسية عن الغنى والبذخ اللذين اتسمت بهما حياة الطبقة البورجوازية باسرها في الاسكندرية . والآن اريد ان أدلل على الاختمار العقلي والروحي الذي نشأ بآن واحد في هذه المدينة مع نشاط التجار وحركة المسافرين وحميا اللذات . وقد كانت الاسكندرية تضيف جميع العابرين ، كما انها كانت ترحب بجميع الاديان ، فأتت

من رومة او من العجم ، من الهند او آسيا الصغرى ، أكانت قديمة مثل ديانة المصريين او اليهود ، او حديثة مثل الدين المسيحي.

بالقرب من المرفأ كان البحارة يترددون الى هيكل الاله اليوناني «بوسيدون» بينما كان اليهود انفسهم في المدينة ينظرون باعجاب الى اله «سيزاريوم» وهو مقدس انشئ ، تحت تأثير النفوذ الروماني ، تكريماً لرئيس السلالة المؤلهة . وقد تمتع بشهرة عالمية هيكل الاله « سيرابيس » وبعد ان دمّر عام ١٨١ من جراء حريق شب فيه ، لم يلبث ان أعيد بناؤه . ويقول بلوتارك عن هذا الاله انه اله مشترك بين الجميع . وكان ، كل عام ، التطواف بالاله ادونيس ، هذا الاله الجميل الآتي من شواطئ الفينيقيين (جبيل وصيدا) والمتمتع بشعبية كبرى في الاسكندرية ، يجتذب لدى مروره بالشوارع جماهير من البلهاء على درجات من التقوى متفاوتة.

وكانت الاديان ذات الشعائر الرمزية تجمع في فرق تختلف عدّا المشتركين في الاسرار من مختلف الطبقات والاعمار والمناشئ . وعلى جوانب الهياكل والمقادس كان المشعوذون والسحرة والمخرقون يستوقفون انظار الطفيليين والمؤمنين بالشعوذات. وقد أتيح للاغريق المثقفين المجدّين ان يصغوا الى مرشدين مخلصين امثال كثير من فلاسفة ذلك العصر ، أو ان يعجبوا ، وعلى شفاههم ابتسامة فيها شيء من الشك ، بخطب رنانة يلقيها معلمون مغالطون يدعون الفلسفة لكنهم لم يكونوا سوى معلمي بيان.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الدين اليهودي قد توصل في الاسكندرية الى تحطيم حواجز اختبأ وراءها حقبة من الزمن . ففي هذه المدينة ترجم الـ ٧٢ يهودياً ، في القرن الثاني قبل المسيح ، التوراة الى اليونانية . وفي القرن الاول للميلاد طبّق فيلون على الكتاب المقدس اساليب التفسير « الرواقي » وحاول التوفيق بين الفلسفة اليونانية واللاهوت اليهودي.

٥

لقد كان لجميع العلوم اختصاصيون فيها، واضحت مدينة الاسكندرية دون منازع في هذا الحقل . ولم يقتصر الاهتمام على الدراسات اللغوية بل تعداها الى

العلوم القياسية كالرياضيات وعلم الفلك . وفي القرن الثاني هذا، كتب « بطليوس » جغرافيته وجمع ايضاً معهد الطب رهطاً من الطلاب كان « جالينوس » الشهير احدهم . حتى ان كثيرين قد اموا الاسكندرية ، ملتقى العلماء والوسط الغني بالمستندات والكتب التي يمكن الاطلاع عليها في مكتبتي المدينة الشهيرتين ، ان لم يكن في طلب العلم فعلى الأقل للاقامة فيها مرة في الحياة .

كانت الاسكندرية ، في الامبراطورية ، عاصمة الثقافة الكبرى حتى انها تفوقت على رومة حيث سادت الحياة السياسية كل شيء مدة طويلة من الزمن، وحيث بدا غالباً النشاط الفكري المتره كغريب عابر، كما تفوقت على اثينة حيث عجزت جهود الاباطرة امثال ادريان ومارك اوريل عن ان تعيد اليها ازدهار القرون الخوالي ، الامر الذي لم يحل دون اهتمام الكثيرين من سكان الاسكندرية بعلم التنجيم . لكنه من المحقق ان نظرتهم اليه اختلفت عن نظرتنا اليوم ، فقد كان هذا العلم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً اما بالعلم في معناه الحصري واما بالدين . وحسبنا ان نذكر مؤلفات افلاطون الاخيرة حيث يحتل علم التنجيم مكانه ( الشرائع والايبينوميس وهما تاليفان لا يشك احد تقريباً في صحتهما ) لنتبين كيف كانوا يعنون بهذا العلم ، عناية جدية .

بالرغم من ان المجتمع الاسكندري قد انقسم ، شأن المجتمعات في جميع المدن الكبرى ، الى اندية منفصلة : محيط الموظفين الرومانيين ومحيط الطبقة المثقفة ومحيط رجال الاعمال المتاجرين بالمال وصغار التجار . . الخ ، فقد بدا في حياته الاجمالية متسماً بطوابع اخلاقية وروحية ، هي طوابع عالم البحر المتوسط يومذاك .

اول هذه الطوابع ان الاسكندرية مزيج من كل الشعوب . ولقد تبين ان موت مارك اوريل ( ١٨٠ ) سجّل نهاية عهد . فبالرغم من ايمانه « الرواقي » وقلة شغفه بحياة البلاط وعدم اهتمامه بالحياة الاجتماعية والسياسية ، او بالنشاط الاقتصادي ، فان هذا الامبراطور الفيلسوف كان قائد امبراطورية من اول طراز ألم يحتفظ بكل التقاليد الماضية، ألم يدافع عن الامبراطورية ووحدتها ، عن الدولة وسلطتها، وعن الدين الوطني ؟ لكن كل شيء تغيّر بسرعة على عهد

الامبراطورين كومود وساويروس . فاخذ مجلس الشيوخ يفقد نفوذه شيئاً فشيئاً واخذت مكانة الدين الرسمي تتضاءل رويدًا رويدا . وأجيز لسكان الاقاليم الاشتراك في كل الوظائف أكان في الجيش أم في الادارة . وقد اصبح كل فرد يتمتع بحرية التنقل. هذا يسافر لتتميم اشغاله، وذاك في طلب الثقافة والتهذيب، وآخر للذة في النفس. حتى اصبح كل شخص من الفرات حتى التاميز « مواطن العالم » ؛ والكل يستفيدون من منافع هذه الامبراطورية المنظمة دون ما حماسة ودون ما امتنان . وفي كل مكان طغت الثقافة اليونانية على الثقافة الاصلية او الوطنية، وقلت العناية بالاضطلاع بالاعباء العامة كما قل الاندفاع في سبيل خدمة الدولة ، مما جعل انعدام الروح المدنية الذي أتهم به المسيحيون يعم الجميع ولكن لاسباب تختلف عن اسباب المسيحيين.

ولا ريب في ان هذه الروح الاممية cosmopolite في الحياة العامة تتماشى وفكرة التوفيق بين الآراء المتباينة والاختيار بين المذاهب الفضلى. قد يحسبون هذا التوفيق شيئاً من اللامبالاة انما يخفي قلقاً روحياً حقيقياً . فمن المعلوم ان الاستعمار الروماني حافظ على السلم والنظام في العالم المتوسط méditerranéen ، لكنه لم يحل دون تسرب التشاؤم الى النفوس . ولنا دليل مؤثر على ذلك ما ورد في يوميات رجل كان في زمانه اعظم الرومانيين ، عنينا به مارك اوريل الذي اثار الاعجاب بجهوده في سبيل صفاء الاخلاق ، وبثقته بالالهة وباستسلامه لشريعة الكون ، وباهتمامه بان يتمم قبل كل شيء مهمته كقائد تقياً يتحلى بالاخلاص والدقة.

٥

في ذلك الوقت بقي للوثنية بعض الاثر واذا كان ما بدا فيها من مظاهر خارجية متوقفاً — الى حد كبير — على العادة والتطبع ، فانها انطوت احياناً على شعور ديني حقيقي. ولنا على ذلك امثلة عديدة :

على انه لا بد من الاعتراف بان الوثنية لم تعد ترضي النفوس . وقد اخذ بعض الفلاسفة ( من اتباع الافلاطونية المستحدثة والرواقية ) ينافسونها منافسة خفيفة بين الطبقة الراقية المثقفة. فوجد الناس من مختلف البيئات والطبقات ، في

الاديان ذات المظاهر الرمزية على الاخص ، ضمانة حسية وعاطفية لخلاص الفرد وخلود النفس ، وهي ضمانة مبنية على الايمان ، وجدوا فيها تنبؤاً بخلاص وتقرباً من الاله . فلم يتراجعوا عن البحث في السر ، لا بل فتشوا عنه ، اذ هناك اشراكات في الاسرار ممكنة . وغدت الكتابة الشهيرة التالية المحفورة على هيكل ايزيس تستهوي متعبدين عديدين: « انا من كان ، أو من يكون ، أو من سيكون الى الابد ولم يدرك بشري حقيقة امري ».

في هذا المجتمع الاسكندري بدا كل شيء ناقصاً ، وقتياً ، غير مستقر ، وكثرت الآراء وخفت الاعتقادات وتعددت المشاريع وقلت التحقيقات وارتسمت خطوط تشاؤم بلغ احياناً حدّ اليأس . ولقد رسم في القرن الثاني للميلاد فيلون اليهودي صورة سوداء للاجتماعات الثقافية في الاسكندرية ، اذ قال :

« كل يوم تزدحم بالناس الامكنة حيث تلقى الاحاديث فيبدأ الفلاسفة بالتكلم عن الفضيلة وقتاً طويلاً دون ما توقف . لكن المستمعين يفكرون في المراكب والاعمال والواردات والاملاك والمداخيل . بينما يحلم آخرون بالمعالي وبالمراتب السياسية او المدنية ، وبالفوز في مهنهم او في الفنون ، ويفكر آخرون في ملذاتهم الجسدية . واذا قدر للبعض ان يصغوا وقتاً ضئيلاً الى الحديث فانهم ينسون الدرس حالما ينصرفون...

« لم يكن فيهم رغبة عميقة في التثقف . فبعد ان يستمعوا الى الخطب لا ينكبون على التأمل الشخصي للعمل بموجب ما قيل لهم ».

٥

بقي علينا ان نقول شيئاً عن المسيحية في الشكل الذي بدت عليه يومذاك في مدينة الاسكندرية ، عندما جابهت محيطاً اغريقياً يدلف الى الزوال .

ان هذا الملتقى بين الدين المسيحي والمدنية الاغريقية ليس بامر جديد في آخر القرن الثاني . فما زلنا نذكر خطاب القديس بولس في محكمة أثينة ، وهو خطاب تجلى فيه باجلى المظاهر طموح المسيحية الناشئ ومجهودها لتفهم ما عند اليونانيين الوثنيين من عاطفة دينية ... ما زلنا نذكر ان انطاكية كانت مدينة يونانية على غاية الازدهار ، ووسطاً ثقافياً ملحوظاً غير انها لم تتمتع يوماً ،

من هذا القبيل ، بمكانة الاسكندرية كما انها لم تصبح عاصمة مسيحية الا بعد زوال مزاحمتها.

وليس بخاف ان الاسكندرية كانت اول مدينة كبرى تنصر فيها عدد غير يسير من الاغنياء ، من الذين يهيمنون على الحياة الاقتصادية في البلاد ، ومن المثقفين ، هؤلاء الذين يضعون المبادئ ويقلبون الاوضاع. على ان دخولهم جميعاً الى حضن الكنيسة أثار – بشكل يفوق حدُّه ما أثاره في آسية الصغرى وكورنثية حتى رومة اهتداء كثيرين من الطبقة المسكينة ، من الصناعيين والعبيد – مسألة قيم التمدن الاغريقي باسرها ، منذ استثمار وامتلاك الخيرات المادية حتى سلطة الفلسفة وحق العقل الساعي وراء الحكمة ، ومسألة نظرية العالم والبشرية ، وامكانية المحاولة للتقرب من غير المنظور ، من الاله ذاته ، بواسطة الفكر او الصلاة.

ومهما كانت مصادر الدين المسيحي في الاسكندرية ، حيث اكتنفته الاسرار اكثر من سائر الامكنة ، فمن الاكيد انه لم يلبث ان توطدت معالمه في هذه المدينة. يشهد على ذلك انتشار الانجيل على مدى واسع. فضلاً عن ان الاسكندرية شهدت في آخر القرن الثاني قيام اسقفية تولى أمرها المطران ديمتريوس.

لا بد من التساؤل ، والحالة هذه ، عن الدور الذي اضطلعت به في هذه الكنيسة الكاثوليكية مدرسة الاسكندرية الشهيرة ، اذ كان من المسلّم به حتى السنوات الاخيرة ، كما ورد في كتب التاريخ بناء على الصيغ التقليدية ، انها اتخذت شكل كلية يرعاها رسمياً اسقف الاسكندرية. ولقد عقد السيد باردي فصلين حدد فيهما بدقة ما يمكن الجزم به وليس هو مجرد افتراض ، قائلاً: ان كان ثمة قبل اوريجينوس (Origène) مدرسة مسيحية فانها لم تكن سوى معهد الدروس يتردد اليه طلاب التنصير. ولا شيء يدل على ان الفيلسوفين بانتين وكليمنت علّما فيه. وجل ما يمكن قوله انهما ألقيا تعاليمهما في نادٍ خاص جمع فريقاً من المثقفين ، مسيحيين كانوا أم وثنيين ، وتناول البحث فيه المسائل الدينية البحتة والقضايا الفلسفية الصرفة ، والادب اليوناني والعلوم.

يتضح مما تقدم ان الكنيسة الكاثوليكية استقرت حينئذ في العالم اليوناني

الروماني واقعاً ثابتاً وحقيقة حية. وبوسعنا ان نتخذ من هذا الزمن نقطة لتشعب مجاري الفكر المسيحي ولكنيسة مصر اهمية خاصة في هذا التطور لانها تبدو خلافاً لما كانت عليه آسية وانطاكية نفسها، مستقلة كل الاستقلال عن اليهودية رغم كثرة السكان اليهود فيها.

واني، حين ارسيت في الاسكندرية، ذكرت اولئك المفكرين الذين كانوا يحيطون بهذه المدينة بعد ان يجوبوا عالمهم المعروف اذ ذاك، من أمثال اكليمنضوس الاسكندري وكثيرين سواه، متصلين بعلمين عديدين في طريقهم الى المعلم الاسمى الذي لا يلقاه الانسان سوى مرة في الحياة، وفيه تجد النفس الحق الكامل.

وكان في الاسكندرية حشد زاخر من الافلاطونيين والمغالطين والغنوسيين وكلهم نصارى يفكرون في ايمانهم ويتساءلون شتى الاسئلة: اين قاعدة الايمان؟ ما جوهر رسالة الكنيسة؟ كيف نقرأ الكتاب المقدس ونحل متعارضاته اللفظية ونختار بين التأويلات المتباينة؟ هل نهرب من العالم او نخرج منه؟ هل على المسيحي ان يتخلى عن الفن ويزهد بالثقافة والفلسفة؟ هل يجب عليه ان يترك كل خيرات الارض ويحتقر الغنى؟ هل التبتل افضل من الزواج؟

وهناك سؤال هام: هل الكنيسة واحدة موحدة؟ أليس من تفاوت بين المؤمنين؟ أليس فيها – كما في سواها – خاصة وعامة؟ هل يستطيع الجميع دون استعداد ملائم، التوصل إلى معرفة الله؟

وكانت كل هذه الاسئلة تدفعهم الى الجدل، والى نقد القيم اليونانية الموروثة، والحكم على التقاليد الاجتماعية والثقافية والروحية. وان هذا النزاع بين التراث اليوناني والايمان المسيحي قد كان أعنف نزاع عرفه الضمير في ذاك الزمن.

واول مسيحي تعرض لكل هذه المعضلات وجابهها بجرأة كبيرة وحرية في التفكير وثقة بالايمان هو اكليمنضوس الاسكندري، شاهد زمانه وممثل معاصريه.
اهتدى اكليمنضوس الى النصرانية، وهو عقل ناضج، مطلع على فلسفة عصره وعلومه وادبه وفنه، منفتح الى كل ما هو بشري، واذا به يقضي قسماً صالحاً من حياته في الاسكندرية محادثاً، مؤلفاً، معبراً عن العقائد المسيحية بلغة فلسفية، مفسراً الكتاب المقدس، هادياً الى طيب الاخلاق.

## ابتعاد اغنياء الاسكندرية عن المبادئ الانجيلية

## في احكام اكليمنضوس الاسكندري

سبق لنا ان عرضنا ما كانت عليه بيئة الاسكندرية في اواخر القرن الثاني للمسيح من التمازج والحيوية. في هذا الخليط من الناس المختلفي العرق واللغة والثقافة والدين، كانت فئة تتميز عن غيرها ثقافة وبحبوحة عيش، هذه الفئة هي فئة البرجوازيين التي اظهر روستف ترف في مؤلفه «تاريخ العالم اليوناني الاجتماعي والاقتصادي» (١٩٤١) ما كان لها من اهمية. الى هذه الفئة توجه اكليمنضوس الاسكندري في القسم الاوفر من مؤلفاته وقد تطرق فيها الى البحث في «اي هو الغني الذي يمكنه ان يخلص» وفقاً لمقتضيات الآداب المسيحية؛ كما انه بحث بدقة متناهية في مؤلفه «المعلم» في حياة الترف التي لم تكن تتناول غير الاغنياء. ويبدو من بحثه هذا انه يحاول الجواب عن سؤال عملي يتساءله المسيحيون وكل طالب ارتداد. وعندنا ان جوابه لا يتوقف عند حل حادث ضمير فحسب، بل يتعداه الى حل مشكلة تمدن كانت قائمة في الاسكندرية في ذلك العهد.

وفي الواقع لو حلّ كاتبنا هذه المشكلة، كما حلها في ما بعد الآباء المتوحدون، ولو ان الكنيسة اعلنت عدم الاتفاق بين السعي البشري وما يثمر من جني مادي والحياة المسيحية، لما قامت تلك المدنية التي اصبحت فيما بعد مدنية بيزنطية. وسنرى ان هذه المشكلة التي تهمّ الدين والمدنية في وقت واحد لا تنحصر في ما تثمر التجارة والصناعة من خيرات، بل تتعداها الى خيرات الروح والعلم والفن. وهنا ايضاً لا بد من التساؤل عما اذا كانت المسيحية تفرض على اتباعها الاعراض عن افلاطون وارسطو ومدنية اليونان من قديمة وحديثة وتجاهلها ونسيانها.

قد تبين لنا سابقاً ان معاصري اكليمنضوس كانوا يواجهون مشكلة ناتجة من غناهم وما تفرضه روح الفقر المسيحية. وحسبي اليوم ان اذكر بعض مظاهر هذا الغنى من ترف ورخاء، واني استخلص ملاحظاتي هذه من مؤلف اكليمنضوس «المعلم»، غير مدخل عليها الا بعض الترتيب.

غرف النوم

خذ مثلاً غرفة النوم، فان انت دخلتها وجدتها مفروشة بالسجاد الارجواني او غيره، ووجدت فيها الاسرة قائمة على اعمدة من فضة ومزينة بالعاج والصدف ومغطاة باغطية موشاة بالذهب ، وفيها وسادات من الريش الناعم حتى كأن النائم يغرق فيها او بالاحرى يدفن ( «المعلم» ٢ : ٩٢٣)

الحمامات

ولك في الحمامات مثل آخر ، فان بناءها لا ينقصه الفن ولا الدقة. تفصل بين الغرفة والغرفة حواجز شفافة غير ثابتة مغطاة بقماش ناعم، وفيها مقاعد من ذهب وفضة وآنية متعددة من المعدن عينه، حتى ان آلات تسخين الماء كانت من ذهب. واننا بغنى عن الاشارة الى ما كان يحدث في هذا الجو المترف من امور يشمئز منها الخلق السليم، ذكرها كاتبنا وندد بها وتركها لنا شاهداً على ما بلغ اليه مجتمع الاسكندرية من ترف ورخاء .

الازياء والزين عند النساء

اما بشأن الازياء والزين فلكاتبنا أوصاف عدة نقتطف منها النزر اليسير قال :

لم يكن النساء ولا الرجال يحجمون عن استعمال الشعور المستعارة وكانوا يأتون بالشعر من الهند، ونحن نعلم ان دخوله الى اراضي الامبراطورية كان مثقلاً بالرسوم. وكانت النساء يضعن على رؤوسهن من هذه الشعور ابنية واهية يدعمنها بالدبابيس والامشاط ( من ذهب وعاج وفضة ) ولا يفوتهن ان يغرسن فيها الازاهير ، وكثيراً ما كان حرصهن على سلامة هذه الابنية يمنعهن من النوم . . .

واليك واحدة من هؤلاء . انها آتية وها هي تقترب وتمر . كلا لم تمر بل قد توقفت لتنشف ، ها هي انظر اليها متبرجة ممشطة ممشوقة . انها معجبة بذاتها ولا شغل لها الا ان تتهندم وتتطيب، وتشد خصرها . وانك لترى هؤلاء التعسات مشغولات منذ الصبح بالتضييق والتمشيط والدهن ، وتحت هذه الاطباق السامة تذبل بشرتهن ويتسمم بدنهن وتذوي زهرة جمالهن وتفنى. ولو

كانت الخسارة لا تصيب الا الجمال لهان الامر ولكنها كثيراً ما تقضي على الصحة ايضاً . . .

ولا تفوتهن وسيلة للخدعة . فالقصيرات ينتعلن النعال العالية من الفلين . والطويلات يقتصرن على النعال الرقيقة ويحنين الرأس اذا ما سرن حتى لا يلفت النظر طول قاماتهن المفرط . . . شقراء الحاجب تسوده بالكحل وسوداؤه تبيضه بالاسفيداج . . . جميلة الاسنان لا تنقطع عن الضحك وان محزونة . . .

داء التجمل في الرجال ايضاً

هؤلاء نساؤهن ، ولا عجب . ولكن الداء فتك بالرجال ايضاً فانهم ينصرفون الى التزين مما يدل على فساد القلوب . فهم باهتمامهم بشعورهم اشبه شيء بالعبيد والدعيرات ، ملء افواههم علك ، وابدانهم مضمخة بالطيوب . رقاق الثياب تائهون مدى النهار في الشوارع ؛ فيخورون برخائهم تفوق وقاحة اعمالهم سوء صيتهم كما ان سخفهم يفوق شرهم . وبسببهم ضاقت مدننا بعمال بؤساء لا فائدة منهم منصرفين دوماً الى نتف شعورهم وتسييد ابدانهم وتضميخها بالطيب ، وبسببهم ايضاً قامت في مدننا هذه الحوانيت العديدة المفتوحة ليل نهار ينصرف اصحابها الى هذه التجارة البخسة ، وسرعان ما يفتنون . وان هؤلاء الناس يظنون انهم يستطيعون ان ينزعوا عن ذواتهم الشيخوخة كما تسلخ الحية قشرتها عنها . وانهم يجددون شبابهم بخضب شعورهم . ولكن ان وسعهم تغيير لون هذه الشعور فهل يسعهم منع التجعد عن جباههم او منع الزمن عن ان يأتيهم بالموت .

تحدثت عن هؤلاء وسميتهم رجالا ، واحرى بي ان اسميهم نساء اذ لم يعد فيهم شيء من الرجولة لا في الثياب الرقاق التي يلبسونها ولا في الصوت الناعم الذي يتكلفون .

كان لباسهم يلفت النظر بفخامته : اقمشة حريرية تزينها رسوم الزهور والحيوان والنبات ، الوانها فاقعة ، وحياكتها دقيقة رقيقة .

وكان هذا اللباس اما فضفاضاً طويلاً للتبختر واما قصيراً للغواية ، حتى نعالهم — نعال النساء خاصة — كانت موشاة بالذهب ومسمرة بمسامير من

المعدن عينه ومطبوعاً عليها احياناً رسم العناق ... كل هذا الى انواع شتى من الحلى : عقود واساور وحلق من اللؤلؤ والحجارة الكريمة .

مهازل مسارحهم

وكان هؤلاء الناس يهوون مشاهد المسارح تمثل عليها المهازل المشهورة بخفتها وسماجتها ، الى المراقص ، الى سباق الخيل ، وهو لذة الجماهير ينقسم فيه الاسكندريون احزاباً انقسام الناس اليوم احزاباً سياسية .

ولم تكن تخلو مسارحهم من مشاهد الصراع اما بين المتصارعين ، واما بين هؤلاء والحيوانات .

موائد مآكلهم

ولم تكن موائدهم اقل ترفاً من سائر غرفهم . اثاثها من طراز الاثاث الذي كانوا يزينون به غرف النوم ومآكلهم لم تكن لتقل عن مآكلنا اليوم دقة واعتناء ، لو كان عندهم برادات او لو كان لديهم ما لدينا من وسائل النقل . وما عدا ذلك فقد كان لهم جيش من الخدم الاختصاصيين ، هذا للحوم وذاك للحلوى وآخر للشراب . يأتون بالاسماك من شواطئ صقلية ومن ابعد منها ، ويأتون بالخمور من جزيرة لسبوس وغيرها من جزر اليونان ونواحي ايطالية .

هوادج النساء وملاهيهن

ومن مظاهر ترفهم ان نساءهم كانت تنتقل في شبه هوادج على اكتاف العبيد ، وان منازلهم كانت تغص بما يربون فيها من العصافير الهندية والطواويس الفارسية والكلاب المالطية ، وربما اقتنى بعض السيدات مسخاً بشرياً للتلهي به والضحك منه بالنظر الى شكله المشوه وسحنته البشعة وحركاته البذيئة .

◎

وسط هذه البيئة من البذخ والغنى وجد الدين المسيحي اناساً يؤمنون به ويسترشدون بنوره . وكثيرا ما كان وعاظ غير ومتصلبون في آرائهم يكررون – على طريقتهم – تنبيهات المسيح الصارمة الموجهة الى اغنياء الارض .

المنقولات والعطور في نظر اكليمنضوس

قال اكليمنضوس في حديثه عن المنقولات الكمالية :

« يجب على تلاميذ المسيح الا يميلوا اليها والا يشتهوها. لكن استخدامها ليس بمحظور على مقتنيها، شريطة ان لا يهيموا بها الى درجة تسبب لهم الحزن عند فقدانها ، لان هذه الاشياء لا يسعها ان تحقق السعادة. »

ونلمس الاعتدال ذاته في حكمه على العطور اذ يقول ، بعد ان يعرض عرضاً رائعاً تنوعها واتجاهها وتركيبها وكيفية استعمالها في الاسكندرية يومذاك :

« علينا ان لا نبتعد عن العطور ابتعادنا عن النسور او الخنافس التي يقتلها – كما يقال – قليل من عطر الورد . ومن الواضح ان النساء يجوز لهن الانتفاع بها ، على ان تكون الكمية ضئيلة والرائحة خفيفة لان الاكثار منها معناه ان تتسرب الى الاحياء عادة تحنيط الموتى.

« أليس الزيت المضر بالنحل وبسائر الحشرات نافعاً للرجال ؟ فهو يستحث همتهم ويلين عضلاتهم ويزيدهم في الالعاب الحربية سرعة وقوة . اما العطور فانها تثير في الانسان التراخي والخمول لذلك بعد ان نقصي عن موائدنا المآكل المفسدة للذوق ، علينا ان لا نجيز لانفسنا استخدام شيء يثير فينا مرآه او رائحته شيئاً من الحس الشهواني مخافة ان يتسرب الى نفسنا بواسطة هذا الحس نهم قد ابتعدنا عنه . . .

وفيما نحن نشجب الملذات المضرة بالحياة ، يبدو مهماً ان نبحث ما اذا كان بوسعنا ان نستخلص منفعة ما من استخدام العطور.

لا شك في ان ثمة عطوراً لا تثير في النفس التراخي ، ولا تدعو الى ارتكاب المنكرات ، ولا يتنافى استخدامها باعتدال مع محبة القناعة . فانها تقوي الدماغ والمعدة وتلين الاعصاب وتنفع ضد امراض مختلفة . اذاً يجب استعمالها لانعاش القوى المتراخية ولمحاربة الخمول والضجر.

وقد تكون انجع وسيلة لاستخدام العطور ، كما قال شاعر هزلي ، ان نضمخ بها ايدينا التي تنقل الى الدماغ رائحة العطر المفيدة ، ولا يخفى ان

هناك فرقاً عظيماً بين الاكثار منها والتضمخ البسيط بها، فالاول من خصائص المخنثين، والثاني نافع للصحة في اغلب الاحيان.

رأيه في استخدام الحمامات

لقد كان اكليمنضوس قاسياً في موقفه من الافراط في استخدام الحمامات. ويبدو اكيداً ان هناك دواعي حقيقية عديدة اوجبت عليه ذلك الموقف في الاسكندرية، غير انه لم يحرم الحمامات تحريماً تاماً. فقد قال ان اسباب الاستحمام اربعة: النظافة والابتراد والصحة واللذة، فلم يحرم سوى السبب الاخير، باعتباره فقط لذة جسدية صرفة.

رأيه في التمارين الرياضية

بقي ان نعلم رأي اكليمنضوس في التمارين الرياضية. انه يسمح بها مع تمييز بين الرجال والنساء. فهو على كل، يعتبرها عملاً مفيداً للرجال، فيما اذا كان هدفها الوحيد تنمية القوى وصيانة الصحة.

## التوفيق في الغنى بين تعاليم الانجيل والعادات الموروثة عن الوثنية

أود قبل نهاية هذا الدرس ان استخلص لكم من النصوص والحوادث التي عرضتها لديكم بعض الافكار:

أولاً ان للاخلاق دوراً تضطلع به في مدنية من المدنيات. فقد كان محور المشكلة التي أثارها في الاسكندرية كثيرون من الاغنياء المسيحيين او المسيحيين الاغنياء، التوفيق بين تعاليم الانجيل والعادات والنظم المستمدة من التعاليم الوثنية.

ذلك ما تناوله اكليمنضوس في مباحثه وتفسيراته. وهذا بعض ما قاله بهذا الموضوع:

« جعلنا الله بنعمته لا نقول، في مستهل كلامنا، شيئاً لا يكون مفعماً ادباً وحقيقة او لا يكون نافعاً لخلاص اخواننا. فالاله الذي يعطي المحتاجين ويرشد الذين يبغون تدبير مصالحهم هو عينه ذو الكلمات المقولة بشأن

الاغنياء، والتي اذا شرحت بعضها ببعض، تقود الى حل امين فسأعيدها عليكم اذاً واشرح لكم بثقة تلك الآيات الانجيلية التي طالما اقلقتكم لان جهلكم أو ضعفكم عجز عن تفهمها :

جاء في انجيل مرقس (١٠:١٧–٣١) :

« وبينما هو يتقدم في الطريق العامة اسرع اليه رجل وجثا على ركبته امامه وقال له :

ايها المعلم الصالح : ماذا اعمل لارث الحياة الابدية ؟ فاجابه يسوع : لماذا تدعوني الصالح ؟ انه لا صالح الا الله وحده . تعلّمُ الوصايا : لا تزنِ، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تخدع، اكرم اباك وامك .

فاجاب الشاب وقال له : « هذا كله حفظته منذ صباي »

ونظر اليه يسوع وأحبَّهُ وقال له : « واحدة تنقصك بعد ؟ اذهب وبع كل ما لك واعطه للمحتاجين، فيكون لك كنز في السماء، ثم تعالَ واتبعني. »

فحزن الشاب لهذا الكلام ومضى كئيباً لانه كان ذا مالٍ كثير ونظر يسوع حوله وقال لتلاميذه: كم يصعب على ذوي الاموال ان يدخلوا ملكوت الله .

فتعجب التلاميذ لهذا الكلام، غير ان يسوع اجابهم قائلاً: يابنيَّ: يصعب جداً على المتكلين على الاموال ان يدخلوا ملكوت الله . فازداد التلاميذ دهشاً قائلين : « من يستطيع اذن ان يخلص؟!»

## « من يستطيع ان يخلص »

اخذ اكليمنضوس هذه الكلمات من الانجيل وجعلها عنواناً لعظة موضوعها : « ايّ غنيّ يخلص ؟ » او بالاحرى : « هل يستطيع الغني ان يخلص ؟ »

كان اكليمنضوس يعرف ان هذه المسألة تقلق بال الكثيرين من اصدقائه المستمعين الذين يؤمّون مجلسه . انهم، رجالاً ونساء، يرغبون في المسير نحو المسيح وقد جدّوا في هذا السبيل، ولكنهم ترددوا عند سماعهم في الوعظ وجوب ترك كل شيء . يملكون بحيث يصبحون مادياً في صف هؤلاء . اصحاب الحرف الصغيرة وفي مستوى العمال الفقراء . من حمالين وبحارة يعملون في المرافئ، اولئك الذين يعيشون من لا شيء . وغالباً ما تعولهم صدقة الكنيسة .

وعلى ذلك يتوجه اكليمنضوس الى مستمعيه بعطف كبير، سنلاحظه اكثر من مرة في الطريقة التي يطرق بها موضوعه. غير ان هذا العطف لا يمنع الصرامة وها كه يبدأ عظته فيقول: « اي غني يخلص ؟ »

الله خالق كل شيء فلكل شيء ملكه وله

انكم ولا شك لاحظتم، في هذه الاسطر، كيف تتجلى على الفور الفكرة النظرية التي ترسم موقف اكليمنضوس من الغنى... ان الاله هو الذي خلق كل شيء، فكل شيء هو ملكه. واليه يجب ان يرجع كل شيء.

ومن ثم كان كل ما نملك عطية منه. واذا ما نلنا عطاياه فلسنا نقدر ان نستعملها على هوانا. ولا سبيل الى الاعجاب بانفسنا اذا حظينا بها... وهنا يبدو خاصة الخطر الذي يحدثه الغنى: فانه يغري الانسان ويشكل سبب كبريائه.

نعم ان مبدأ دينياً يعمل هنا — لكن هذا المبدأ يوحي واقعاً بالانسانية، والانسانية أيا كان وحيها ليست سوى وقفة للانسان في وجه الحياة اعني انها عنصر اساسي في تكوين الحضارة

ضرر المدح للاغنياء

وتابع اكليمنضوس عظته فقال: بنظري انه لاكثر انسانية. ان نصلي من اجل الاغنياء. ونعيدهم الى امتلاك الحقيقة من ان نطنب في مديحهم لشر اقترفوه.

« هذه هي، على ما يظهر لي، ميزة الانسانية المسيحية او الحضارة المسيحية، اذا بقيتا على اصليها. فجل مرماهما ان تكونا انسانيتين وتساعدا الانسان على وجود الحقيقة في ما يعنيه العمل بوجبها.»

اما الذين يغدقون الالقاب والمدائح على الاغنياء. فيجب على ما اظن ان يُعتبروا ليس كالساقطين والادنياء. فحسب — اذ هم يتظاهرون، على أمل المكافأة، بالاهتمام بمن لا يستحقونه — بل ان يُعتبروا ايضاً كالزنادقة والخونة.

زنادقة: لانهم يهملون الشكر والمديح للاله الواحد ذي الصلاح والكمال الذي « منه كل شيء كان، واليه كل شيء يعود » ويخصون بسمات المجد والشرف،

المحفوظة لله وحده ، باناس تمرغوا بالرذيلة والشقـا. وقد اصبحوا مهددين بدينونة الله.

خونة : لان المال هو كاف بحد ذاته لان يضعف ويفسد نفس مالكه ومقتنيه. وفوق ذلك يأتي المداهنون الملاقون ويُلقون التشويش في عقول الاغنيا. اذ يهيجون فيهم لذة المديح الفارغة ويحملونهم على احتقار كل شيء ما عدا الثروة ، فيتوهم هؤلاء انها تجلب لهم الاحترام والاعتبار ولذلك يجمعون ، كما يقال ، نارًا على نار ويصبون كبريا. على كبريا. ويضيفون عبئًا على ثروتهم : جسم ثقيل على حمل اثقل منه.

مع انه كان الافضل ان يجردوا ثروتهم مما يشينها ويخلصوها مما يؤذيها ( كمن مرض ثقيل مميت ) لان « من اتضع ارتفع » ، حسب قول الانجيل.

وعوضًا عن ان نطرئ الاغنيا. ونمدحهم على عمل الشر، يجب علينا من قبيل الانسانية ان نساعدهم بكل الوسائط الممكنة على عمل خلاصهم اذ من جهة نبتهل الى الله ان يسبغ النعم على ابنائه بفرح واستمرار.

ومن جهة ثانية فاننا اذ نهتم ونعتني بنفوسهم باقوالنا ومثلنا، معتمدين على رحمة الله ونعمته نرشدهم ونقودهم الى امتلاك الحقيقة لان من يحصل عليهـا ويُشرف بالاعمال الصالحة هو الوحيد الذي يحصل على جزاء الحياة الابدية.

ولكن الصلاة تستدعي نفسًا زكية لتظل ممتلئة قوةً وثباتًا الى آخر يوم من الحياة. وحياة الانسان يلزمها ايضًا استعدادات صالحة وطاعة كاملة لوصايا المخلص.

لذلك فالسبب الذي يجعل الخلاص اكثر صعوبةً على الاغنياء من الفقراء ليس بالسبب البسيط.

— وها انك ترى البعض قد عبّروا باقتضاب وبشكل سطحي عن كلام السيد المسيح القائل : « انه لاسهل على الجمل ان يدخل في ثقب الابرة من ان يدخل غني ملكوت السموات » ، فخمد نشاطهم ويئسوا من الحياة كأنَّ الفوز بها ليس بالواجب عليهم. واذا استسلموا للعالم وتعلقوا بالحياة الدنيا ، كأنه لم يترك لهم غيرها ، ابتعدوا اكثر فاكثر عن الطريق التي توصل الى السما. ،

دون ان يهتدوا بمعرفة الى اي الاغنياء يوجه السيد المسيح كلامه ، ولا كيف يصبح المستحيل على الطبع البشري ممكناً على الانسان بواسطة نعمة الله.

— والبعض الآخر قد فهموا هذه الجملة وعبروا عنها باسلوب موافق صحيح، لكنهم اهملوا الاعمال التي تؤدي الى الخلاص ولم يستعملوا ما هو ضروري للحصول على آمالهم واهدافهم.

واني في كلا الحالين اتحدث عن الاغنياء الذين لهم ايمان وطيد بقوة المخلص الفادي وفوزه الباهر تاركاً الذين لا يفتشون عن الحقيقة وشأنهم.

خبر الشاب الغني في الانجيل

ويقرأ اكليمنضوس على سامعيه صفحة الانجيل التي تتضمن خبر الشاب الغني ويردفها بهذا الاعتبار :

ان هذا الخبر الذي نجده في انجيل القديس مرقس نجده ايضاً عند باقي الانجيليين — قد يكون هناك بعض التباين — ولكن هذا التباين لا يفقد الكلام شيئاً من معناه.

اننا نعلم يقيناً ان مخلص العالم لم يكلم البشر حسب الروح البشرية فقط، ولكنه بطّن تعاليمه بحكمة مقدسة وبتصون. فلا نأخذن خطبه بالحرف ولا نشرحها حسب افكارنا الجسدية . بل لنجتهد في ان نتفهم معناها المحجوب بالدرس المجد المتواصل.

لسنا نريد ان نعطيكم هنا تحليلاً للقطعة بكاملها، بالرغم من انها تتطلب في كل سطر ملاحظات شائقة . يكفينا في الموضوع ان نقرأ هذه الصفحة المبهمة حيث يشرح المؤلف مقطع الانجيل الاكثر قلقاً للبال ، ويرسم جلياً الجواب الذي يحله الى مستمعيه.

فما الذي جعل الشاب يهرب وما الذي ابعده عن المعلم وقد دنا منه يستجدي المعونة ؟

ما الذي جعله يفقد الرجاء والحياة وقيمة الاعمال المبررة كلها التي كان قد صنعها ليكتسبها ؟

هو هذا الكلام : « بع كل مقتناك » ولكن ما معنى هذا الكلام ؟

انه لا يعني ما يدل ظاهر الكلام عليه : تجرّد عن كل غناك ، اطرحه بعيداً عنك ، فليس هنـا المعنى الحقيقي . ولكن اقلعوا من نفوسكم الاحكام الباطلة التي ترتأونها في الغنى ، واقلعوا عن هـذا الجرح المخجل الـذي هو البخل ...

فا الجديد في كلمة المخلص هذه ... اقلعوا عن رذائلكم . اقلعوهـا من انفسكم ، اطرحوها بعيداً عنكم . فهذه وصيته،وهذا تعليمه الخليقان بالمؤمنين وبشخصه .

حيث تكون كنوزكم ..

ان كثرة آثامنا هي التي تقضي علينا ولا نجاة لنا الا في اتلافها . لذلك يجب علينا ان نجرد انفسنا ونعريها من الاثم لنسمع هذه الكلمات المعزية التي فاه بها المخلص :« هلموا واتبعوني ، فطريق الخلاص يفتح لطهارة القلب ، ويغلق لعدم الطهارة ، وعدم الطهارة هذا ليس قط في غناكم ولكنه كله قـائم في هواكم ، في لهيب شهواتكم المتأجج . لانكم اذا كنتم اغنياء وتقرون بان ذهبكم وفضتكم وبيوتكم هي من كرم الله فترجعونها ، في شخص اخوتكم،لله الذي وهبكم اياها ، اذا كنتم تقرون بانها متعة غيركم اكثر مما هي متعتكم،اذا كنتم ترتفعون فوق اقتنائها بقوة عقلكم فتأمرونها بدلاً من ان تطيعوهـا ، اذا كنتم لا تنكمشون على عواطفكم الانانيـة فتحصنون ضنها بل تستخدمون غناكم للعمل الالهي في سبيل خلاصكم ، اذا كنتم وقت الضرورة تتجردون من كنوزكم وتحتملون الفقر الناتج عن ذلك محتفظين بذاك الامان وذاك الفرح الصافي الثـابت اللذين نعمتم بهما وسط ثرواتكم ، كنتم ممن يطوبهم السيد المسيح ويدعوهم فقراء بالروح ، وورثاء اكيدين للملكوت السماوات الذي ما كنتم تدخلونه لو نبذتم عبء غناكم لعجزكم عن حملانه .

فالرجل المنغمة نفسه من عاطفة الغني الدنسة المغلق قلبه عن روح الله لامتلائه ذهباً وتراباً،والرجل الذي يجهد ابدا النفس والجسد في اكثار خيراته الى ما لا حد له ،–انسان كهذا عبد يقوده المالم ، عبد منحن نحو الارض التي

خرج منها والتي اليها سيعود كيف يمكنه ان يلتهب شوقاً الى امتلاك ؟ انسان ينزع قلبه من صدره ويحل مكانه معدناً بارداً . كلا ! ان كلمته مقيد بحب غناء الاثيم وفيه سيجده الله : « لانه حيث تكون كنوزك فهناك ايضاً قلوبكم »

ينبغي لنا ان نعتبر ، باجماع رأي المفسرين ، ان اكليمنضوس قد انخدع بنكرانه المعنى الحقيقي ، المادي المكتمل الوضوح لكلمات السيد المسيح : « بع كل مالك » ، وهو ذاته يرضى بهذا المعنى في مقطع آخر من مؤلفاته . الا اننا نبادر الى القول انه قد اصاب تماماً في الحاحه على روح هذه الدعوة ، التي يكون معناها الروحي العميق المطبق على كل انسان ليس باقل وضوحاً : لنكن متجردين ، على الاقل ، بالروح عن الغنى ، بنوع ان هذا القلب يظل متواضعاً بعيطاً رؤوفاً سخياً نحو القريب بقدر ما يجب عليه ان يكون ، اعني حسب روح الانجيل دون ما قياس ولا حساب .

هذا ايضاً واضح جد الوضوح في هذا المقطع الاخر من عظاته

ان اكليمنضوس اعطى الخطوط الاولى لواجب المحبة الاخوية لكل مسيحي ، لذلك الواجب الناتج من الاعتقاد بحقيقة الثالوث والفداء ، وهذا من الاهمية بمكان وان هناك المبدأ الروحي الثاني ينتج منه موقف اكليمنضوس العملي بالنظر الى الخيرات الارضية .

محبة الله فوق محبة المال

ان الله هو ذاته محبة والمحبة هي التي اظهرته لنا

. ان الاب في محبته صار امرأة . والبرهان المحسوس هو كونه ولد ذاته من ذاته والثمرة التي اثمرها هي المحبة .

ولهذا السبب نزل الابن على الارض واتخذ جسداً وذاق بارادته حالة الطبيعة البشرية ، كيما يقاس ضعفنا ، نحن الذين احببنا ، مع عظمة قوته الذاتية .

وحين قدم ذاته ذبيحة لاجل افتدائنا أبقى لنا وصية جديدة : « اعطيكم محبتي » . ولكن ما هي هذه المحبة ؟ وما هي عظمتها ؟

اعطى كلاً منا حياته التي توازي حياة البشرية جمعاء. وهو يطلب الينا عناً عنها تقدمة حياتنا بعضنا لبعض. فان كانت حياتنا لاخوتنا، وان قطعنا عهداً مع المخلص أفنضبط خيرات هذا العالم الشقية الغريبة التي لا نحسن ضبطها حباً للاقتصاد؟ ايحرم الواحد الاخر خيوراً قد تلتهمها النيران في القريب العاجل؟

اليك من يوحنا عبارة الهية موحاة حقاً: «من لا يحب اخاه فهو قاتل»، وسليل قايين وخليقة الشيطان، لا يعرف قلب الله ولا يعرف رجاء الكاملين، هو عاجز عن الايلاد والخلق، ليس غصناً من الكرمة السماوية الابدية، هو مقطوع وعليه ان ينتظر النار الشديدة الاضطرام.

اما انت فتعلم طريق الكمال التي يعرضها علينا بولس الرسول لبلوغ الخلاص.

المحبة لا تلتمس ما هو لها، ولكنها، بعكس ذلك، تغمر اخاها واليه تندفع شوقاً ولاجله تملئ جذرناً مترناً. المحبة تسدل ستاراً على كثرة الخطايا. المحبة الكاملة تشجب الخوف، لا تتباهى ولا تنتفخ، ولا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق، وتعذر كل شيء، وتصدق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شيء. المحبة لا تسقط ابداً، اما النبوآت فستبطل، والالسنة ستزول، والشقاء سيبقى والذي بت الان هو الايمان والرجاء والمحبة. هذه الثلاثة اعظمها المحبة. وذلك حق. لا الايمان يبطل عندما نرى الله وجهاً لوجه. والرجاء يبطل عندما يملك موضوعه. اما المحبة فهي جزء مكمل للكل وتتأجج اكثر فاكثر عند بلوغها الكمال الذات. ان كل من يغذي نفسه بهذا يمكنه بازدياد محبته وتوبته الصادقة ان يكفر عن خطاياه، وان كان قد حبل به بالخطيئة واتى كثيراً من الاعمال المحر

الجمال جمال الروح لا المادة

ان النساء اللواتي يصرفن همهن في تجميلهن الخارجي فقط لا يشعرن بانه فيما يزين جسدهن تظل نفوسهن مهملة، شنيعة عقيمة.

تلك هي هياكل المصريين: ان غابة مقدسة، واروقة طويلة، ودهاليز رحيبة توصلك اليها، واعمدة تحصى تحمل القبة العالية، والجدران المنطاة

بالاحجار الكريمة والرسوم الفنية ترسل في كل الجهات ضياء يبهر نظرك. وهذه العظمة لا ينقصها شيء . ففي كل مكان فضة وفي كل مكان عاج . وتتعجبون حقاً كيف ان الهند والحبشة تتمكنان من تحصيل غنى يكفي لهذه الحاجة . غير ان بيت المقدس ما زال بعد محجوباً عن الانظار تخفيه احجبة طويلة من الارجوان مغشاة بالذهب والحجارة الكريمة . فاذا اخذ منك هذا المنظر العظيم مأخذه وحلمت في منظر اعظم ، وتقدمت وسألت ان ترى وجه الاله الذي من اجله بُني هذا الهيكل الفخم ، واذا حضر احد الكهنة «مقرّبي الذبائح » الذين يقطنون الهيكل ، رأيته شيخاً جليلاً رصيناً يرفع حجاب المقدس ، منشداً الاناشيد الروحية كما لو انه سيريك الهاً . ولكنّ عاطفة مرة تعقب في نفسك الاعجاب المغلوط . فهذا الاله الجبار الذي تطلبه ، وهذا المثال العظيم الذي تسرع لرؤياه ، انما هو هرّ ، هو تمساح ، هو حية او مسخ شنيع . لا اقول انه ليس اهلاً لسكنى هيكل ، بل ان مسكنه الوحيد يجب ان يكون في ظلمة الكهوف او في اوحال مستنقع وسخ . فاله المصريين مسخ يتمرّغ على طنافس من ارجوان . اليست هنا صورة تلك النساء اللابسات الذهب اللواتي لا يعرفن الملل في تفكيك ضفائر شعرهن ، والخدود تبرق تصنعاً وحواجب العينين مطلية بالالوان المفتعلة ، فانهنّ يستعملن في تزيين جسدهن وفتن الانظار الفن المنشوش الخداع الذي يستعمله المصريون لجلب العبّاد للمسخ الذي يدعونه الههم . فلو رفعتم حجاب هذا الهيكل وخرقت عيونكم حجاب هذه الثياب الارجوانية ، هذه الحلى ، هذا التصنع ، هذه الالوان التي تمشيها وتملأها ، لو حرصنا على الدخول الى نفوسهنّ املاً منا في ان نجد جمالاً حقيقياً يكون صدى لهذه الازياء ، انا اعلم ان ما نجده سننفر منه ونقبحه . وهذا الهيكل العظيم المدنس لا تسكن فيه صورة الله .

انكم عبثاً تفتشون عنها لان روح الكبرياء والخلاعة قد حلت محلها فاصبحت شبيهة بالبهيمة الدنسة المزينة بزينة بهية ، تلك التي كانت مصر ترفعها على مذابحها .

# مظاهر النشاط الادبي

## لمحة نقدية

بقلم فؤاد افرام البستاني

### علائيات

ينقضي الموسم، ولا ينقضي جناه. ويفنى النغم، ويظلّ صداه العذب على تردّد في آذان المعجبين.

ذكرت هذا، وقد تناولت مؤخرًا عن دمشق كتاب « اوج التحرّي عن حيثيّة ابي العلاء المعرّي» ليوسف البديعي، فكان حلقةً اخيرة من تلك السلسلة العلائية المتتابعة منذ ان احتفل ادباء العربية، سنة ١٩٤٤، بمرور الف سنة على مولد ضرير المعرّة. فظهر فيها السفر الاول من آثار ابي العلاء المعرّي، بعنوان « تعريف القدماء بابي العلاء »، مطبوعاً في القاهرة سنة ١٩٤٤، باشراف الدكتور طه حسين؛ ثم « رسالة الملائكة » للمعرّي بتحقيق محمد سليم الجندي، في مطبوعات المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٤؛ ثم « المهرجان الالفي لابي العلاء المعرّي » في المطبوعات نفسها، سنة ١٩٤٥، جمع وصف المهرجان الذي اقامه المجمع العلمي الدمشقي، وما قيل فيه من القصائد والخطب. ثم عدد من الرسائل والابحاث لعلّ اطرفها « زوبعة الدهور » لمارون عبود في منشورات « المكشوف »، بيروت، ١٩٤٥. واخيرًا هذا الكتاب الذي خصّه يوسف البديعي، من ادباء القرن السابع عشر، بـ« رهن المحبسين »[1]، أخرجه في مجموعة النصوص الشرقية من منشورات المعهد الافرنسي بدمشق، الاستاذ ابراهيم الكيلاني، اخذًا عن مخطوطة فريدة في المكتبة الظاهرية، وصفها واشار

١) أوج التحرّي عن حيثيّة ابي العلاء المعرّي. تأليف يوسف البديعي. نشره ابراهيم الكيلاني في منشورات المعهد الافرنسي بدمشق: مجموعة النصوص الشرقية: الجزء الرابع، دمشق، ١٩٤٦، ص ٢٢ + ١٧٦ بقطع وسط.

الى ميزات كاتبها في اسلوبه وانشائه.

وقد قدّم عليه الاستاذ سليم الجندي مقدمة جامعة لخص فيها مضامين الكتاب، مدوّناً ما يستنتج منها عن ابي العلاء. من انه « ذكيٌّ تقيٌّ أبيٌّ شاعرٌ عالمٌ زاهدٌ ... » (ص: ج)، آخذاً على البديعي اعراضه عن « البحث عن نفسيّة الشاعر وفلسفته واغراضه في شعره ودرجة ثقافته الواسعة ومصادرها وعلاقة آثاره بحياته العلمية والعملية وعن آرائه في الحياة والمذاهب والنحل والنسل والمرأة وما شاكل ذلك ... »، نافياً ما يذكره البديعي من ان ابا العلاء رحّل الى طرابلس وانطاكية واللاذقية، حاملاً على من اقرّ صحة هذه الرحلات، مثبتاً رحلته الى بغداد فقط.

على ان ابرز ما يهمّ الاستاذ الجندي هو ان يعيد ابا العلاء الى حظيرة الايمان، فيشكر للبديعي انه « احسن الانتصار لابي العلاء. ووفق في الدفاع عنه » ويشدّد النكير على من رماه بالزندقة والكفر والالحاد والتعطيل والسحر (كذا) ومعارضة القرآن، والاستخفاف بالنبوات. ولم يكن ذلك الّا حسداً وسوء ظن، ولله ابو الطيب حيث يقول: اذا سا. فعل المرء ساءت ظنونه (ص: ك.)

ويرى الاستاذ ان الذي وصل الينا من آثار ابي العلاء « معمور بالشعور الديني طافح بالادلة على ايمان ابي العلاء. وصحة عقيدته. وليس ما زُعم انه عارض به القرآن من المعارضة في شي. انما هو تمجيدٌ لله! » (ص: ك.)

واما ما في اللزوميات من ابيات لا تتفق وصحة العقيدة ودوام التقوى — ولا ننسَ « ان ابا العلاء كان يصوم الدهر ولم يفارق الصلاة حتى فارقته الحياة » — فهو مدسوس على الشاعر، دون شك « فلا يؤاخذ به ». وهكذا ينتهي ابو العلاء، بعد تطوافه بين العقائد المتباينة مدة الف سنة، الى راحة الجنة « التي وُعد بها المتقون ». فتتحقق له على اكمل وجه، « رسالة الغفران » التي لم يأتِ على ذكرها الاستاذ الجندي في تخريج ما قد يشكّك فيه من آثار المعرّي. ولعله يعتبرها من الاعمال التقوية التي يقصد بها تمجيد الله!

الّا انّ هناك بيتاً واحداً يقضّ مضجع الاستاذ في « تطويبه » المعرّي، وهو قوله:

تحطّمنا الايام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبكُ

بيد ان تأويله في متناول اليد ، اذا « لم نضف اليه المكابرة والتمرد » « لانه يريد لا يعاد لنا سبك في الدنيا لا في الآخرة ، لان الزجاج لا يعاد سبكه فيها » (ص : ل)

قلنا : أوَ لا يرى الاستاذ الجندي ، بعد كل هذا ، ان ابا العلاء جدير « بالترضية » نكفّر بها عما نعته به السلف حسدًا وافتراء من نعوت الكفر والالحاد و « الخمْرَنة » — كما في قول ياقوت — فنعوّد الناشئة ، اذا ما ذكرت اسمه ، ان تردفه بالقول « رضي الله عنه ونفعنا بعلمه وتقواه » !

ولنعد الى البديعي فنجد ان اثره جليل القيمة ، على ضعف تأليفه ، وتفاوت اسلوبه . وهو في عصر زال فيه الابتكار[1] ، وتكاثفت ظلمات الانحطاط ، ولم يبقَ للمؤلف الا الاختيار والجمع . وقد جمع البديعي عن ابي العلاء فاوعى ، وذكر معلومات دقيقة عن حياته ومآتيه ، ونماذج صالحة من آثاره الشعرية والنثرية ، منها المعروف المتداول ، ومنها النادر النفيس ، ومنها غير المعروف في زمننا ككتاب « الالغاز » اورد منه للمؤلف اثنين وعشرين بيتاً في النعامة والنجم والثريا والكعبة ... فكان له فضل الدلالة عليه ، وللاستاذ الكيلاني فضل اخراجه بالطبع ، وخدمته خدمة نقدية بالغة في التقديم والتعليق والتحشية والعرض والفهرسة .

## محاضرات

ومن محصولات سورية في هذه الايام ثلاث محاضرات القاها ، في حلب ، الاب متوديوس زهيراتي[2] ، امين سر المدارس الكاثوليكية السورية ، حول مشكلة التعليم الخاص في سورية .

جال في الاولى منها في حقوق المدارس الخاصة وواجباتها تجاه الحكومة . وانتقد في الثانية البرامج والكتب الجديدة . وخصّ الثالثة بالتعليم الحرّ في

١) توفي البديعي سنة ١٦٦٣

٢) لجنة المدارس الكاثوليكية السورية ، حلب ، ٥٤ ص . متوسطة ، مطبعة القديس بولس ، حريصا ، ١٩٤٧ .

العالم المتمدن . ألقيت هذه المحاضرات في حقبة يضطرب فيها العالم السوري في تطبيق برامج جديدة اقل ما يقال فيها انها جاءت ثمرة التسرع والاندفاع ، فظهر منذ السنة الاولى، ان نتائج تطبيقها لا تبعث على الاطمئنان الى مستقبل الثقافة السورية.

اما التعليم الحرّ فقد ضمنه الدستور السوري ضمانته حرية الاديان . على انّ واقع الحال كثيرًا ما يقسر النصوص على اطاعة الرغبات والشهوات ، ولاسيما عندما تطغى الفكرة الخاطئة بجعل الفرد في سبيل الدولة ، وما كانت الدولة ولا غيرها من المؤسسات الاجتماعية والسياسية والادارية الا ادوات ووسائل غايتها القصوى مساعدة الانسان في استكمال انسانيته.

نستفيد من المحاضرات الثلاث معلومات قيّمة عن التعليم في سورية خاصًا وعامًا ، كما نستفيد عناصر وافرة للمقابلة بين التعليم الحرّ في سورية اليوم ، وفي غيرها من بلاد الله على عصور متفاوتة ، كهولندة وانكلترة ، واقتراحات وجيهة في ما يجب عمله «للوصول الى المساواة بين التعليم الرسمي والتعلم الخاص.»

كل ذلك معروض باسلوب واضح واعٍ ، مستند الى بعد نظر في الاستنتاج ، وجرأة بصيرة في عرض المشاكل ونقدها ، وعمق في المناظرة والمناقشة . وهو مما يجعل المحاضرات تتجاوز في فائدتها وواقعيتها حدود الدولة السورية ، واحرِ بجميع المشتغلين في اعداد مناهج التربية ودرس البرامج التعليمية في دول الشرق الادنى ان يطلعوا عليها ويقبسوا منها اشياء واشياء.

ما دمنا في فنّ المحاضرات ، فلنشر الى المجموعة الثانية من «محاضرات الندوة اللبنانية» الظاهرة مؤخرًا في بيروت[1] . والندوة اللبنانية مؤسسة ثقافية انشأها في بيروت الاستاذ ميشال اسمر،وقصد في انشائها تمكين المثقف البيروتي من السماع الى اشهر رجال العلم والادب في لبنان يحاضرون ، كل في موضوع اختصاصه، على دور السنة. وقد نظم سلسلته الاولى من خمس واربعين محاضرة في اهمّ مظاهر الادب والفن والتاريخ والاجتماعيات ، مع النظر في دساتير البلاد

١) المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٤٧ ، في ٨٦ صفحة متوسطة .

العربية المجاورة . وارصد هذه النشرة لتعميم اهم المحاضرات ، مظهراً منها حتى اليوم مجموعتين تناولت الاولى ثلاث محاضرات موضوعاتها : « رسالتي كتائب» للاستاذ كمال جنبلاط ، « لبنان في ما قبل التاريخ » لكاتب هـذه السطور ، و«الحركة اللغوية في لبنان في الصدر الاول من القرن العشرين» للاستاذ امين نخله . وخصت النشرة الثانية ، باربع محاضرات واحدة منها بالفرنسية للرئيس الفرد نقاش ، جال فيها جولةً جدّ موفقة في « المشكلة الدستورية في لبنان» . وثلاث بالعربية موضوعاتها «الابجدية الفنيقية وانتشارها » للامير موريس شهاب ، و« الصحافة في لبنان في مطلع القرن العشرين » للشيخ فؤاد حبيش ، و « القصة والتمثيل في لبنان في مطلع القرن العشرين »للاستاذ رئيف خوري.

دقق الامير موريس شهاب في الفرق بين الكتابة الابجدية وماكان معروفاً قبلها من كتابات تصويرية ومسمارية كانت قاصرة عن التعبير عن المعقولات ، عاجزة عن كل عمل تجريدي من شأنه ان يقود الى العلم الصحيح المبني على التعميات فعلى النواميس العامة . « لذلك اقدم الفنيقي على مـا لم يجرؤ ان يقدم عليه غيره . أقدم كالكيماوي على تحليل نبرات الصوت ، فاتخذ منها ابسط مركباتها وانشأ رموزاً لهذه المركبات ، حصرها في اثنتين وعشرين نبرة لا غير ، فعبر عن كل ما في اللغة من الرنّات . ومما يثبت لنا حسن الطريقة الفنيقية هو ان هذا العدد بقي على ما كان عليه منذ آلاف السنين . فلم ترَ الانسانية من حاجة الى زيادته . ولم يضف اليه ، رغم مرور الازمان وتعدد لغات الشعوب التي اقتبست الابجدية الفنيقية ، سوى عدد قليل من الاحرف لا يتجاوز اصابع اليد »

وتتبع الامير المحاضر انتشار هذه الابجدية في العـالم الغربي اولاً من الشواطئ الفنيقية الى بلاد اليونان والطروادين ، الى سواحل افريقية الشمالية، الى صقلية وايطالية ، الى الباليار واسبانية ، الى ما وراء الهرقليات . وتتبعها شرقاً الى مملكتي اسرائيل ويهوذا في فلسطين ، الى مملكة ارام في دمشق وما وراءها . وهكذا « نرى الابجدية الفنيقية في القرن التاسع قبل الميلاد منتشرة من شواطىء البحر الاطلسي الى ضفاف الفرات وحدود البادية . »

فندرك « ما للفنيقيين من فضل على العالم » .

اما نصيب الصحافة فكان بحثاً طريفاً ظريفاً لصاحب «المكشوف» عرض فيه لتاريخ الصحافة، وتحديد ما كانت عليه عندما كانت اداة ثقافة نافعة، وما صارت اليه في عصرنا، عصر السرعة، حتى صح فيها وصف ادريان هبرار، احد اصحاب جريدة « الطان »، اذ قال: « يجب ان يُفكر فيها وتُكتب وتُنضد وتطبع وتقرأ ويُحفظ مضمونها ويُنسى في النهار نفسه ». وتناول المحاضر المراقبة على الصحف بالتهكم اللاذع كما تناول التعطيل الاداري بالشجب الحاسم، خاتماً بقول دجيفرسن: «نفضل لبلادنا صحافة بلا حكومة على حكومة بلا صحافة . »[1]

## منشورات تعليمية

ومما يلحظه مراقب النشاط الادبي في لبنان اليوم اقبالٌ واسع على نشر الكتب التعليمية، من الدروس الابتدائية حتى الفلسفية. وآخر ما وصلنا من ذلك « اخوان الصفاء »[2] وهو « درس تحليلي لفلسفتهم مذيّل بمنتخبات من رسائلهم » من قلم الاب يوحنا الفاخوري البولسي، استاذ الآداب والفلسفة العربية في المدرسة البولسية في حريصا . وقد وفّق المؤلف، والحق يقال، الى اظهار الميزات الخاصة بهذه الفلسفة الانتخابية التي كان تأثيرها العملي في

---

١) بعد كتابة ما تقدم، ظهرت النشرتان الثالثة والرابعة من «محاضرات الندوة» وقد تضمنتا :

النشرة الثالثة : ثلاث محاضرات ( ٧٨ ص. متوسطة ) :

الاساس الفلسفي واللاهوتي المحتوم في نهضة لبنانية، للاستاذ سعيد عقل .

تاريخ المملكة العربية السعودية واوضاعها الدستورية، للاستاذ يوسف يزبك

تاريخ الحضارة الفنيقية واشعاعها، للعقيد عزيز غازي ( بالفرنسوية ) .

النشرة الرابعة : ثلاث محاضرات ( ٥٢ ص . متوسطة ) :

فلسطين في معترك السياسة العالمية، للاستاذ نجيب صدقه .

الشعر في لبنان في مطلع القرن العشرين، للاستاذ صلاح لبكي .

لبنان في مهب مقدراته، للاستاذ شارل عمون ( بالفرنسوية ) .

٢) سلسلة « فلاسفة العرب » : ٢، مطبعة القديس بولس، حريصا، ١٩٤٧، في ٤٦ ص . متوسطة .

تعميم عادة التفكير اوفر من قيمتها الفكرية الاصلية ، بعد ان قدّم كلمة في ماهية الجمعية وغايتها ومرامي اعضائها ، وعدد رسائلها وانتشارهـا ، وموضوعهـا ومضامينها ، ومصادرها المتنوعة ، وفق في ذلك لاستناده الى اسلوب علمي صحيح في الدرس والمناقشة ، ولاستقائه المواد من مظانها الاصلية ، اي الرسائل نفسها ، لا مما قيل فيها وحولها ، فجاء عمله مفيداً نافعاً .

وكان بودنا ان نقول القول نفسه عن عدد من النشرات التعليمية في مختلف المواد تظهر حيناً بعد حين . الا انها في مجملها بعيدة عن الروح التعليميـة والاسلوب التربوي ، لما يعوزها من تحقيق علمي ، وتدقيق في البحث ، وتحفظ في الاحكام ، ولما يشوبها على الغالب من اندفاع صحفي خطابي .

## ذكريات

رحم الله من قال :

« والذكريات صدى السنين الحاكي ! »

فلنسمع اذاً لغتنا العربية ترجّع اليوم صدى مائة من هذه السنين تحكي تطوراتها ، منذ مولد امامها الاكبر ، وابنها الابر ، وخادمها الغيور ، الساهر بعين يقظى على حفظها وانمائها ، ورعايتهـا في السير نحو التعبير العصري الى جنب لغات الثقافة الانسانيـة ، الا وهو ابراهيم بن الشيخ ناصيف اليازجي . ولد الشيخ في بيروت في الثاني من اذار سنة ١٨٤٧ . وما هو ان دخلت السنة الحالية حتى اخذت الاوساط الادبية في لبنان ، وخارج لبنان ، تتحفز للاحتفال بالذكرى المئوية استعادةً لشخصية اليازجي الكبيرة ، واعتباراً باثره البعيد في نهضتنا الحديثة . وكان من نصيب مجلة « المسرة » ، الصادرة في حريصا ، ان تكون السابقة الى نشر بعض الدروس اليازجية في عدد ممتـاز ظهر في ايار ، خاصاً بذكرى الشيخ[1] ، محتوياً على عشرة ابحاث في حياته ، وفي مختلف مظاهر نشاطه العلمي واللغوي ، وعلى قصيدتين عاطفيتين ، وشذرات من اقواله وآرائه .

اما الابحاث فقد بدأت بوصف سريع لكاتب هذه السطور ، ألمّ فيـه

١) مطبعة القديس بولس ، حريصا ، لبنان ، ٨٠ ص . متوسطة .

بمظاهر النهضة اللبنانية في منتصف القرن الماضي ، زمن نشأة الشيخ ابراهيم ، اذكان لبنان باسره يختمر بنهضة فكرية شاملة ، في مدنه وقراه ، في مدارسه وديورته ، في مطابعه وانديته وبيوت معلميه . فتتعدد مراكز الاشعاع الثقافي في بيروت خاصة ، من زقاق البلاط ، وفيه منزل الشيخ ناصيف اليازجي ومدرسة المعلم بطرس البستاني ، ومقرّ الارسالية الاميركية ، الى حيّ الصيفي ، وفيه مقرّ الرسالة اليسوعية الاولى ، ومركز مطبعتهم ، الى حيّ مار مارون ، وفيه منزل مارون النقاش ، والد المسرح العربي . وتتكاثر الكتب المنشورة في جميع مناحي الفكر ، من اللاهوت والفلسفة الى انواع العلم الحديث ، الى اللغة في قواعدها وفنونها ، الى الشعر والادب ، الى القصص والروايات . في هذا الجوّ العابق بالشعر المتسامي ، المختمر بالتأمل المتتابع والتفكير الرصين ، المشعّ ببوارق البراهين في المجادلات ، نشأ ابراهيم بن ناصيف بن عبدالله اليازجي .

اما اصل اسرته ، فقد تولى الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف مهمّة الجلاء عنه . فجزم بانها حورانيـة المنشأ ، تفرّق افرادها في جهات حمص ، وحصن الاكراد ، وامّ فريق منهم لبنان في اواخر القرن السابع عشر ، ونزلوا الساحل الغربي من الشويفات الى كفرشيما الى بطشيه . وفي لبنان انتقلوا من المذهب الارثوذكسي الى الكاثوليكي . وظلوا عليه . واما اخلاق الشيخ وصفاتـه فقـد ألمّ ببعضها الاستاذ المعلوف نفسه ، وتوسع في البعض الآخر الفيكونت فيليب دي طرازي مستعيدًا « ذكرياته اليازجية » منذ ٧٦ سنة ، بادئاً بمأتم الشيخ ناصيف سنة ١٨٧١ ، والفيكونت ، اذ ذاك على مقاعد المدرسة ، يشارك سائر التلامذة في تشييع الراحل الكبير ، « وكلٌّ منهم يحمل بين يديه كتاباً من تآليف الشيخ » ؛ منتقلًا الى ذكر اساتذته من الاسرة اليازجيـة ، خاصاً الشيخ ابراهيم بمعلومات عن مواهبه التصويرية الفنية ، عارضاً ثلاث لوحات بريشته صوّر في الاولى نفسه ، وهو جالس امام المرآة ، وفي الثانية اخته الشاعرة وردة ، وفي الثالثة الدكتور يوسف الجلخ[1] . واللوحات الثلاث في معرض دار الكتب الكبرى في بيروت . ويزور الفيكونت الشيخ ابراهيم في مصيفه ، فيصف لنا قرية « شويت » الهادئة ، البعيدة عن صخب المصايف ، وضجيج المدن . ويمثل

لنا الشيخ ، وقد فوجئ احد الايام « مفاجأة عذبة » بزيارة عدد من اصدقائه ومريديه منهم الفيكونت، والشيخ ابراهيم الحوراني ، والشيخ عبدالله البستاني ، والشيخ اسكندر العازار ، والدكتور اسكندر البارودي ، والاستاذان جبور سعد وحبيب الجارة ، فيستقبلهم في فناء بيته المظلل باشجار السنديان والصنوبر « حيث كان يدخن النارجيلة ويتناول الطعام » .

ويخص الاستاذ عارف بك نكد قسماً من بحثه باخلاق اليازجي مفصلاً بعض خلاله . واذا به ، كما يظهر من ابحاث الاساتذة الثلاثة المذكورين ، على كثير من « الشمم والاباء ، وعزة النفس ، والاخلاص لصحابته وذوي قرابته . » يترفع عن اكبر المناصب في زمنه وبيئته . « على ان الشيخ كان في انتقاداته ومناظراته شديداً عنيفاً ، حتى كان يتعداها احياناً الى المهاترات والمطاعن الشخصية . وهو مما يؤخذ على مثله كثيراً . وحمله هذا الاباء على مخاصمة كثيرين ، مخاصمة كان في غنى عنها . وكان ، الى جانب ذلك ، حلو الحديث ، لطيف المعشر ، ظريف النكتة » ، مخلصاً في كل ما يعمل ، مندفعاً في اتقان كل ما يباشر . وعلى الجملة يرى الكاتب ان « عظمة اليازجي في انه صاحب رسالة آمن بها ، فأعطاها نفسه ، ووقف لها حياته ، عاملاً مخلصاً ، غير مغير ولا مبدل ، كذلك كان في الشام ايام شبابه ، وكذلك كان في مصر ايام كهولته ، وهو رجل ما استهوته المناصب وقد عرضت عليه ، ولا هفت نفسه الى ثروة وقد امكنته الايام منها . »

وقد تجلى نشاط اليازجي في اللغة اولاً . وهو ما اشار اليه الاستاذ النكدي في المقال نفسه ، دالاً على ان الشيخ اصاب موضع الداء في تشخيصه مرض العربية ، واحسن وصف الدواء . اما الداء فادعى مظاهره الى القلق والايجاس هذا التفاوت الذي نراه بين لغة الكتابة ولغة التخاطب حتى اصبحت اللغة اليوم وكأنها « لغة قوم آخرين ، لذهابها عن الالسنة من عهد عهيد ، وايداعها بين الواح من المصاحف لا تبدي ولا تعيد ... وان اللفظ انما وضع ليكون مسموعاً لا منظوراً ، واشخاصه انما هي الاصوات الناطقة لا الرسوم الصامتة . فكيف يتأتى لهذه المناجيات السرية ان تتغلب على المناغيات

الجرَّية ، مع تواترها على حواسه : في المعاشرات اليومية ، والمحادثات البيتية . . .

« قلنا وبهذا يتميّز كتاب الاعاجم على كتابنا . فان الكاتب منهم لا يتكلّف في الالفاظ والتراكيب صوراً غير ما يجري به لسانه في المخاطبات المألوفة . فالمترسّل منهم والخطيب والكاتب والامي والشيخ والغلام ، له لغة واحدة لا تتفاوت الّا في المعاني ووجوه الخطاب وسائر القوالب اللفظية واحدة لا تتغير الا على جهة التأنق وطلب الايجاز والاطناب . . . .

«واين ذلك من حال الكتاب في لغتنا . . . حتى ان الكاتب منّا بهذه اللغة لا يكاد يتميّز عن الاجنبي فيها ، لبعدها عن لهجته ، وتناوله اياها بعد استحكام اللغة العامية منه ، وتمزّز ملكتها فيه .»

واما الدواء فيراه الشيخ في تأليف لجنة من ذوي البصائر السليمة ، والعلم الصحيح ، تتولى كتب النحو بمثل ما فعل مؤلفو مجلة الاحكام المدلية في الكتب الشرعية ، فيختارون من كل قاعدة اصحّ الاقوال فيها وامثلها ، لتكون مرجعاً لطلّاب هذه الصناعة ، وتنبذ بقية الاقوال الساقطة والمذاهب المرجوحة » . ويفعل كذلك بكتب متن اللغة . . .

هذا وصف العلاج ، وقد مرّ عليه نصف قرن ، ولم يتكلف احد تطبيقه . . .

اللهم ما كان من مساعي الشيخ نفسه في تقويم المعوج من لغة الجرائد ، واصلاح الفاسد من تعابير الكتّاب ، مما افاض بذكره الاب يوحنا الفاخوري في درس سماه « الشيخ ابراهيم اليازجي إمام اللغة العربية » ومثّل فيه على تدقيق الشيخ في اصول اللغة ومدلولات صيغها وتسلسل المعاني في مشتقاتها ، مع التلميح الى ما اثارته دقة الشيخ وتشدّده من مناظرات جمعت بين حسن المناقشة وسوء المهاترة .

وقد كان لصاحب البحث جولة سريعة في اسلوب الشيخ لم يتوسع فيها لانصرافه الى تحديد قيمته اللغوية . واسلوب الشيخ ، كما لا يخفى ، اسّ شهرته الانشائية ، واروع ما ترك من اثر في الادب العربي . ونحن لا نخال كاتباً عربياً منذ عهد ابن المقفّع وبديع الزمان ادرك ما ادركه الشيخ من سرّ اللفظة المفردة في مجموع الجملة[1] . . .

---

١) راجع بحثنا في ذكرى الشيخ ابراهيم اليازجي في « البشير » ، ٢٨ شباط ١٩٤٧ .

ومما لفت نظرنا ، في هذا العدد الممتاز ، كلمة لخليل بك مطران حدّد فيها بايجاز بليغ فنّ اليازجي في جميع مآتيه ، فدعاه « مذهب الاتقان » . وكأنه اتمّ بهذا الدرس ما اشار اليه الاستاذ المعلوف ، في بحثه المذكور سابقاً ، من ميل الشيخ ميلاً طبيعياً الى الفنون الرفيعة كالموسيقى والشعر ، والتصوير ، والنحت ، وعلى الجملة الى كل ما يخرج الفكرة والعاطفة بالتمثيل الحسي الجميل . وهذا الميل لا يفرض الاختراع والابداع ، ولا يعتمد على السرعة والارتجال . ولهذا كان الشيخ « لا يخلق جديداً ولكنه يتقن ما يصنعه الى حدّ انك تعزوه اليه وتعرفه بطابعه . ولهذا لم ينظم مرتجلاً ، ولم يكتب الّا محتفلاً . »

ثم نبذة للاستاذ جبران النحاس دعاها « الشيخ ابراهيم اليازجي وشعر ابي الطيب وطلوع الكواكب » اظهر فيها معرفة الشيخ بموعد طلوع السماك — والشيخ من علماء الفلك — وتطبيقه ذلك في شرح بيت المتنبي :

اذا سرنا وفي تشرين خمسٌ رأوني قبل ان يَرَوُا السماكا

شرحاً خالف فيه سائر الشرّاح لانهم لم يتنبهوا للمقصود بطلوع الكواكب .

وشاء الاستاذ انيس الخوري المقدسي ان يجعل من « اليازجي الشاب شاعراً قومياً » فوجد في شعره ابياتاً تدلّ على ذلك . الا انه « لم يدرِ تماماً متى أقلع عن السياسة وحصر جهوده في اللغة والادب . »

وخُتمت ابحاث المجلة بمقال اجمالي في « جهاد الشيخ ابراهيم اليازجي » للاستاذ ابي بكر النمري ، وبمعلومات مفيدة في وفاة الشيخ وجنازته ، ونقل رفاته ، ونصب تمثاله ، وبثَبت يكاد يكون كاملاً جمعه الاستاذ يوسف اسعد داغر في المصادر والمراجع لليازجيين في الادب العربي . اما القصيدتان فاولاهما للدكتور عبد المسيح محفوظ ضمّن فيها اشهر آثار اليازجي ، والثانية للاستاذ بديع فارس القارح ذرف فيها دمعةً عن كفرشيما بداعي الذكرى المئوية .

هذا عرض سطحي لمضامين العدد الممتاز الذي خصّ بالذكرى اليازجية . ولا يخفى ان كل ناحية من نواحي نشاط الشيخ تتطلب عدداً برأسه من الدرس والتمحيص . وقد اطلنا في هذا البحث لعلنا ندفع ادباءنا الى بذل

شيء من جهودهم هذه السنة في الابحاث اليازجية . ونحن على يقين ان الحكومة اللبنانية ستقيم اسبوع دراسات تتناول الشيخ ابراهيم معلماً ، ولغوياً، ومنشئاً ، ومعرّباً لترجمة الكتاب المقدس ، وشاعراً ، على مقياس الشعر في مطلع القرن العشرين ، وذا مشاركة في مختلف العلوم جعلت منه صاحب اثر باقٍ في نهضتنا الحاضرة . وليس بعيداً ان تجمع هذه الدراسات في مجلد واحد يدوّن اعتراف الحفدة بفضل السلف الصالح .

❁

ومن الذكريات الادبية التي يجدر بنا احياؤها، هذه السنة ،ذكرى مئوية اخرى لظهور اول جمعية علمية في الشرق المعاصر . هي « الجمعية السورية » التي انشئت في بيروت ، سنة ١٨٤٧، على يد المعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي وبمساعدة المرسلين الاميركان ولاسيما الدكتور عالي سميث .

وتحتفل بيروت كذلك بذكرى مرور مائتي سنة على مولد شاعرها في القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر، عنينا به السيد احمد البربير .

وهناك ذكرى الخمسين سنة على وفاة جمال الدين الافغاني، من رجال النهضة السياسية والاجتماعية . وذكرى الخمسين كذلك على وفاة امين الشميّل،صاحب المباحث الاشتراعية النفيسة ، ومؤسس اول مجلة قضائية في اللغة العربية .

قدّرنا الله على احياء ذكراهم خالدةً ، وعلى الاقتداء بهم في العمل الدائب والجهاد المخلص .

## ظرفيات

ومن الاعداد « الممتازة» الظاهرة حديثاً عدد اصدرته مجلة « الهلال » في شهر حزيران . اما امتياز « المسرة » فكان احتفاء بالذكرى المئوية الاولى لمولد الشيخ ابراهيم اليازجي ، كما قلنا . واما امتياز « الهلال » فلا تدرك له سبباً ، الّا ان يكون الرغبة في توجيه مصر « الى الامام ! » وفقاً للخطاب الوطني الذي افتتح به العدد رئيس التحرير احمد زكي بك ، ونظمه في مقطعات اربع لخليل مطران ، والعوضي الوكيل ، واحمد الزين ، وحسن كامل الصيرفي . ولعل الشعار المذكور كان الدافع في تنظيم تلك

السلسلة من الآراء في عالم الغيب «كفنيات مصر بعد جيل» للسيدة امينة السعيد، و «المازني بعد عشرين سنة» للمازني نفسه، و «اخلاق جديدة في عالم جديد» لاحمد امين، وعاصمة الشرق العربي، اي القاهرة، كيف تكون غداً؟ للاستاذ كمال اسماعيل، ومساكن «المستقبل» عن مجلة «اميركان ويكلي»؛ و «وصايا الجيل الجديد» للاستاذ عباس محمود العقاد، وافكه الافاكيه في موضوع الغيب هذا «الانسان بعد آلاف الاعوام» المنقولة عن مجلة «سينس دَيجست». يتخلل ذلك مقتطفات من الصحف الاجنبية، ومقاطع لبعض كبار الكتاب، واحصائيات مصورة، وصور «ملونة لكواكب الغد».—وليست الكواكب هنا من عالم الفلك، على رغم انتظامها بالهلال، انما هي من عالم هوليود — وقصص، وحكايات، واحاجي، وحزازير، واكتشافات بهيجة، كذاك الطعام العجيب الذي «يتغذى به المخ» «فيصبح الاغنياء اذكياء»، وغير ذلك من الفكاهات والنوادر التي يطّلع عليها الصديق المجامل، فيقول قول الاستاذ عباس محمود العقاد: «الهلال يُيسّر المعارف ولا يبتذلها»، ويمن فيها الناقد البصير فيقول: رحم الله جرجي زيدان!

ومن الابحاث الهلالية، في هذا العدد، موضوع يدعو الى التأمل والاهتمام الرصين، وهو ترجمة القرآن. هل تصحّ هذه الترجمة، وما هي شروطها؟ وهل تكون حرفيةً ام معنوية ام تفسيرية؟

وهل يجوز ان يبقى كتاب كالقرآن، يستند اليه مئات الملايين في حياتهم الدينية والاجتماعية، ولا ترجمة قانونية له في اللغات الاجنبية؟

كلها اسئلة تحمل على التفكير والمقايسة بين ملكات اللغات المختلفة، وتقدير ما قد ينقص من روعة الاثر بنقله، وهل يعدل هذا النقص الممكن حرمان الفائدة من ترجمة الكتاب؟ كان منتظراً من «الهلال»، وقد عمد لمثل هذا الموضوع الخطير، ان يفيه حقه من جميع الجهات. الا انه طرح السؤال على مَن لا يعرف الا اللغة العربية، وهو الشيخ محمد عبداللطيف دراز، مدير عام الازهر الشريف، فكان من حسن ادبه ان اعتذر بلطف عن الكلام في صلب الموضوع، واخذ يحدّد لغوياً كلمة الترجمة، ويحكم حكماً عاماً

بانه « اذا كان المعنى قريباً من الاصل كانت ترجمته صحيحة ، وان لم يكن قريباً من الاصل كان كلاماً لغواً ، وكانت ترجمته فاسدة . » ( كذا ! )

ومن المنشورات الظرفية مجموعة خطب ومقالات عاطفية القاها وكتبها في مناسبات مختلفة الاستاذ نبيه امين فارس ، ونشرتها له «دار العلم للملايين» في بيروت ، بعنوان « العرب الاحياء » [1] . والكتاب لطيف المظهر ، خفيف المحضر ، يكاد يكفي الابتدائيين في تغذية بعض العواطف . الا ان الباحث الجادّ لا يسعه الا تحقق الضعف التاريخي والاضطراب العلمي في فرضيات المؤلف ، والتعامي عن وقائع الامور ، وذاك الميل الساذج الى فرض التاريخ كما يريده الكاتب لا كما كان في الحقيقة .

وفي بيروت مجلة اسمها « صوت المرأة » تنشرها جامعة نساء لبنان ، وتحاول ان تجمع فيها ، في مظهر أنيق ، ما يؤول الى تسلية المرأة وافادتها . بيد ان كثرة المقالات « الرجالية » فيها دفعت بعضهم الى استخشان هذا « الحسّ » فقالوا ان تنمّ المجلة اقرب الى « صوت الرجل » منه الى « صوت المرأة » . وكأنهم تجاوزوا الحكم الى القول ان « ليس في لبنان اديبات » . فقامت المجلة تردّ عليهم في مطلع عددها الاخير . ونشر رئيس تحريرها — وهو رجل — صفحةً قال فيها « ليس في لبنان ادباء » . وهكذا خلت الساحة من المتبارزين !

## استشراقيات

ان يكن صحيحاً القول المأثور : « وصاحب البيت ادرى بالذي فيه » . فقد يكون صحيحاً كذلك ان المراقب عن بعد ، وان غريباً ، يتناول بلمحاته الفسيحة ، ونظراته العميقة ، من شمول البحث ودقة الدرس ما قد يفوت صاحب البيت نفسه . هي حالة بعض المستشرقين في درس شؤوننا ، اذا ما خلصت منهم النية ، وصحّت المعرفة ، واستقام الحكم . وقد لا نعدم في كلامنا اليوم ، امثلة على ابحاث هؤلاء العلماء نذكرها نشراً لفضلها ، ودلالةً

١) ١١٢ صفحة صغيرة ، بيروت ، ١٩٤٧ .

لبني قومنا على بعض نظان في شؤون تهمّهم وتفيدهم.

ونبدأ بالاشارة الى كتاب في المدخل الى اللاهوت الاسلامي ( *Introduction à la théologie musulmane* ) بعدّه لويس غارديه ( L. Gardet ) بمعاونة الاستاذ قنواتي . وقد اقتطع منه نحو الثلاثين صفحة نشرها في مجلة « ديار الاسلام » ( *En Terre d'Islam* ) الصادرة في ليون ، اربعة اجزاء في السنة . والمقال يقع في اول الجزء الاول من سنتها الحاضرة [1] . اما موضوعه فأدلّة النقل وادلّة العقل في اللاهوت الاسلامي ، تناول فيه الباحث المذاهب الكلامية التي نشأت في الاسلام منذ عهد المعتزلة الى الاشعرية والماتريديّة ، وما اثّرته في الاولى نظريات القاضي الباقلاني ، الى ردّ الفعل الحادث على اثر انتشار الآراء الفلسفية على يد الفارابي وابن سينا ، الى بناء الغزالي ، الى مؤلفات الرازي والتفتازاني والجرجاني، حتى ينهي الطواف برسالة التوحيد للشيخ محمد عبده . يدقّق في كل ذلك مستخرجاً التحديدات والشروح في علمي التفسير والكلام ، مناقشاً قيمة الاحاديث ، معدداً المبادئ الصالحة في استخدام الاحاديث مصادرَ للتفسير او اصولاً للفقه ، مشيراً الى قيمة « الخبر » ، والى نصيب الاجماع من اصول الفقه ، منتهياً « بالعقل » ودوره في اقرار النظر والقياس والرأي والعُرف . كل هذا في اسلوب سهل واضح طالما عوّدناه غارديه في ابحاثه عن الغزالي خاصة، وتساوق العقل والايمان في فكرته .

ولا نشك في ان مريدي هذه الابحاث الفلسفية اللاهوتية يسرّون اذا اعلناهم بقرب ظهور المجلد الثالث من كتاب ابن رشد في « تفسير ما بعد الطبيعة لارسطو » الذي يُعنى باخراجه في المطبعة الكاثوليكية ، على اتمّ ما يمكن من التدقيق العلمي والتجهيز النقدي، الاب موريس بويج اليسوعي (M. Bouyges) ، اشهر مَن يُذكر اليوم في نشر نصوص الفلسفة الاسلامية ، وذلك منذ السنة ١٩٣٨ ، وفيها اصدر الجزء الاول في ٥٠٤ صفحات ،

[1] Louis Gardet, *Arguments d'autorité et arguments rationnels en théologie musulmane*. — *En Terre d'Islam*, 3ᵉ série, nº 37. 1947, 1ᵉ trimestre, p. 3-29

ثم اصدر الجزء الثاني سنة ١٩٤٢ في ٨١٤ صفحة، واخيراً هذا الجزء الثالث في نحو الالف صفحة، مشتملاً على الفهارس الواسعة، والمقابلات بين جميع الروايات في المخطوطات المختلفة، مع الاشارات الى الترجمة العربية الاصلية التي استند اليها ابن رشد في شرحه، والى ما يقابلها من نص ارسطو. يظهر ذلك لاول مرة، فينيل الاختصاصيين بهذه الموضوعات مادة من اصح المواد واضبطها اخراجاً، ويلقي على عمل ابن رشد ضوءاً جديداً يزيد في قيمة ذاك الذي عرفه الغرب باجمعه، في القرون الوسطى، باسم «الشارح» على الاطلاق.

نضيف الى هذه الابحاث درساً عميقاً للدكتور زويمر الشهير في مجلة «العالم الاسلامي» (The Moslem World) اسماه «الله الاسلام والاله الموحى بيسوع المسيح.»[1] تتبع فيه فكرة التوحيد في نظر المسلمين من النصوص القرآنية حتى الاحاديث، حتى التفاسير المتأخرة.

۞

ولا ينحصر النشاط الاستشراقي الحاضر في عرض العقائد اللاهوتية او نشر النصوص الفلسفية، انما هو يتناول جميع مظاهر الحياة الشرقية دينية كانت او ادبية او اجتماعية. ومن اهم المجموعات الحديثة في تسهيل معرفة الشرق الاسلامي خاصة مجموعتان انشئتا في باريس:

الاولى برعاية «معهد الدروس الاسلامية» في جامعة باريس وعنوانها «التمهيد الى فهم الاسلام» (Initiation à l'Islam) ظهر فيها حتى اليوم خمسة مجلدات:

١ – المدخل الى تاريخ الشرق الاسلامي، بقلم جان سوفاجيه.

٢ – محمد: حياته وعقيدته، منقولاً الى الفرنسوية عن كتاب تور اندريه (Tor Andrae) بقلم جان غودفروى دي مومبين (J. Gaudefroy-Demombynes)

٣ – تاريخ الترك في آسية الوسطى منقولاً الى الفرنسوية عن تأليف بارتولد (W. Barthold) بقلم السيدة دونسكيس (Mme M. Donskis)

٤ – المدخل الى درس تطور اللغات السامية، بقلم الاب هنري فليش اليسوعي (P. H. Fleisch)

---

[1] Dr S. M. Zwemer, *The Allah of Islam and the God revealed in Jesus Christ.* — *The Moslem World*, october 1946.

واخيرًا « مؤرخو العرب »[1] : صفحات مختارة ترجمها وعلّق عليها جان سوفاجيه . وهي تتناول ٣٢ نصًا لاربعة وعشرين مؤرخًا من العصر العباسي الاول الى آخر عهد المماليك في مصر ، فتصوّر حياة البلاط ، واخلاق الخلفاء والامراء في اوقات جدّهم وساعات لهوهم وعبثهم ، ومآسي القصور ، واحوال الجنود ، وتنظيم الادارات ، ووصف الولايات والامصار ، والحواضر ، والجوامع . وتنبغي الاشارة الى ان المؤلف لم يجهد فكره في اختيار اروع النصوص تأليفًا وارشقها اسلوبًا . بل كان رائده العلم لا الادب فمثل مختلف الاساليب ، وشتى الطرق . وقدم على كل نص درسًا موجزًا كافيًا في حياة المؤرخ ، وتحديد طريقته ، وقدر قيمته .

والمجموعة الثانية تُنشر بادارة ليڤي-پروڤنسال ( E. Lévi-Provençal ) الاستاذ في السوربون . عنوانها «اسلام الامس واليوم» (*Islam d'hier et d'aujourd'hui*) وغايتها ان تعرض للاختصاصيين ، ولغير الاختصاصيين ، سلسلة من الابحاث الرصينة في العالم الاسلامي : ماضيه وحاضره : في الادب والتاريخ والمجتمع ، وتطوّر الفكر ، يقوم بتدوينها جماعة من كبار علماء الإسلاميّات في فرنسة . ويظهر منها قريبًا ، ان لم يكن قد ظهر : « المدنية العربية في اسبانية » ، و « اشبيلية الاسلامية » للاستاذ ليڤي-پروڤنسال نفسه .

وقد تناولنا مؤخرًا في المجموعة نفسها ، الجزء الاول من كتاب المستشرق بلاشير في ترجمة القرآن الى الفرنسية[2] ، في اكثر من ثلثمائة صفحة مخصصة للمقدمة وحدها . والحق يقال انه لجهدٌ جدير بكل تقدير يبذله الاستاذ بلاشير في درس المصحف درسًا تاريخيًا ، بادئًا بتحديد الموضوع ، معددًا الاسانيد التي من شأنها ان تفيدنا في درسه وشرحه ، منتقلًا الى بحث الكتابة والخطّ في الجزيرة العربية في فجر الاسلام ، مشيرًا الى كَتَبة النبي ، والى ما كان

---

[1] J. Sauvaget, *Historiens arabes*, pages choisies traduites et présentées, In.8°, 192 pp., Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien Maisonneuve, Paris, 1946.

[2] R. Blachère, *Le Coran*. Traduction selon un essai de reclassement des sourates. Introduction. 1 vol. in-12, LIX + 273 pp., Librairie orientale et américaine. Paris, 1947.

يكتنف الكتابة في ذاك الزمن من نقائص فنية تجعل المستند الاساسي لحفظ الآثار انما هي الذاكرة .

وينتقل الى البحث في هل جُمع القرآن في حياة النبي ، فيناقش عنوان فصل من فصول ابن سعد : « ذِكْرُ من جمع القرآن على عهد رسول الله » فيشير الى ان «الجمع» هنا لا يفيد ضرورةً ما نفهمه اليوم من تدوين الاثر كله بالكتابة . انما معناه الارجح ان يكون الحفظ عن ظهر القلب ، فيكون معنى الفصل : « ذكر من كان يحفظ القرآن بأجمعه على عهد رسول الله » . ويشير الى فرضية المستشرق كازانوڤا المعلّل عدم جمع القرآن في عهد النبي بانتظار المسلمين الاولين قيام الساعة قريباً .

ثم ينتقل الى ذكر المجموعات الاولى ، فالى محاولة ابي بكر ، فالى مصحف عثمان ، مدققاً في خصائصه متتبعاً انتشاره ، ذاكراً ما أُدخل عليه من التحسينات الخطية كالإعجام وعلامات الاعراب لمزيد الضبط ، وتلافي الاشكال والالتباس . وكان طبيعياً ان يقوده هذا الموضوع الى درس القراءات المختلفة فخصّ بها بحثاً واسعاً درس فيه ميزات القراء السبعة ، والعشرة ، والاربعة عشر ، مشيراً الى افضلية السبعة الاولين .

وتطرّق من ذلك الى وصف المصحف في حالته الحاضرة من حيث الاقسام ، سوراً وآيات ، ومن حيث بعض الاصطلاحات الاملائية والإعرابية ، ثم من حيث الانشاء .

وبعد ان يذكر ما يقوله المعتزلة والخوارج في مصحف عثمان ، وموقف الشيعة منه ، ينتقل في فصل اخير واسع الى مصادر الدروس الاستشراقية في علوم القرآن : منها ما يؤخذ من علم القراءات ، ومنها ما ينيله علم التفسير ، فيتضافر العلمان على تسهيل فهم النصوص القرآنية . وينتهي بذكر الاساليب التي سار عليها بعض العلماء من المستشرقين في تأريخ السور والآيات مستندين احياناً الى « اسباب النزول » والى نظرية « الناسخ والمنسوخ » ، مستنتجين احياناً اخرى تاريخية النصّ مما يحمله من تلميحات واشارات الى بعض الاحداث السابقة او المعاصرة . وهكذا تمكن موير (Muir) وسبرنغر (Sprenger)

الانكليزيان ، ووَيل (Weil) ونولدكـه (Nöldeke) وشوالي (Schwally) الالمانيون من محاولات تأريخية في ترتيب السور والآيات ، استفاد بلاشير من جميعها، واضاف اليها ملاحظات خاصة؛ فرتّب اقسام المصحف على اقرب ما يمكن من التسلسل التاريخي ، ثم قام بنقلها الى الفرنسوية نقلًا كلّفه الجهد البالغ والعمل الدائب .

وسيخرج النقل قريباً في مجلّدين يردفهما بمجلّد خاصّ بالتعليقات والملاحظات . فيكون عمله ، في المجلدات الاربعة ، افضل أثر يظهر في القرآن بلغة اجنبية .

❁

ولم تُعدم الحياة البدوية نصيباً في ابحاث المستشرقين الاخيرة . فقد حمل الينا بريد هولندة ما دلّنا على ان الحركة الاستشراقية لم تتوقف فيها حتى في اشد ازمنة الحرب حرجاً؛ فصدر في ليدن الجزء الاول من كتاب نفيس للاب هننغر (Henninger) الالماني[1] في موضوع العائلة الاصيلة في البيئة البدوية ، خصّه بجمع المعلومات والوثائق والنصوص المتعلقة بالحياة البدوية في عصرنا ، راقياً منها الى العصور السابقة التي تقوده الى درس حالة العائلة الاصيلة في الشعوب السامية . على انه يحصر تحرياتـه ، في هذا المجلد ، بالبدو الرّحل من رعاة الابل ، ورعاة الغنم ، الضاربين في بلاد العرب وما جاورها من العراق وشرقي الاردن ، اولئك البدو الذين اخذت تتكاثر المعلومـات عن طرق معيشتهم منذ رحلة نيبوهر (Niebuhr) في اواسط القرن الثامن عشر (١٧٦١—١٧٦٥) الى اليوم . حتى ان المؤلف امكنه ان يستغل ٥٥٣ مصدراً ، فيوضح كثيراً من النقاط الغامضة في حياتهم العائلية والقبلية والاجتماعية والاخلاقية والقضائية في السلم والحرب ، والحلّ والترحال . على أن هناك نقـاطاً كثيرة لا تزال بحاجة الى حلّ او ايضاح . من ذلك ما يتعلق بأثر المرأة في المجتمع البدوي، وهل يمكن الدفاع عن زعم القائلين بحق « الام »، منـذ ان اعلن ولكين (Wilken) نظريته بسيادة « الامومة » في المجتمع البدوي الاصيل ! ؟

[1] Dr Josef Henninger, s. v. d., *Die Familie bei den heutigen Beduinen Arabiens und seiner Randgebiete. Ein Beitrag zur Frage der ursprünglichen Familienform der Semiten.* VIII + 188 pp., 1 carte. E. J. Brill, Leyden, 1943.

ومن الابحاث في الشؤون البدوية درس الاب دي دنڤيل ( P. de Dainville ) في مجلة «العالم الاستعماري المصور» (Le Monde Colonial illustré, N° 209, oct. 1946) بعنوان « على ضفة الفرات » لخص فيه اهم تحققات الاب شارل اليسوعي واستنتاجاته المدونة في كتابين مهمين خص الاول منهما بدرس حياة القبائل رعاة الغنم في منطقة الفرات الاوسط ، والثاني بمحاولات تحضير البدو بين الفرات والبليخ[١] . ولا يخفى ما تنتج هذه المحاولات من ارتفاع في مستوى المجتمع السوري عامة .

۞

وتكاد افريقية تحتل القسم الاوفر من النشاط الاستشراقي في يومنا ، فتتوالى الكتب والابحاث في مراكش ، وسائر المغرب ، والصحراء ، والسودان .

من ذلك كتاب قيم ظهر في الدار البيضاء . وشاء تواضع المؤلف ، القومندان روبر أسبينيون (Aspinion) ان يسميه « مساهمة في درس الحق العرفي البربري المراكشي »[٢] . وهو في الحقيقة مجموعة ثمينة لاختبارات المؤلف في حياة ليست بالقصيرة قضاها بين قبائل زيانة في جبال مراكش ، فدرس عاداتهم ، واهتم خاصة باساليبهم القضائية في الفصل بين الخلافات على طريقة العرف والعادة الجارية منذ الاحقاب الطويلة . فاولانا فكرة واضحة عن مدلول العدل ومظاهر القضاء في تلك المنطقة ؛ واولى ارباب الاختصاص بالشؤون الشرعية والقضائية مجموعة من المستندات ذات قيمة لا يستهان بها .

وهناك كتاب لهنري بوردو نشره في باريس بعنوان « وجه مراكش »[٣] . وليس هنري بوردو مستشرقاً ولا دارساً مطلعاً الاطلاع الكافي على حياة الشرق

١) H. Charles, s. j., *Tribus moutonnières du Moyen-Euphrate.*
— *La sédentarisation entre Euphrate et Balīh.*

٢) Cᵗ Robert Aspinion, *Contribution à l'étude du droit coutumier berbère marocain.* In-8°, 303 pp. Ed. A. Moynier, Casablanca. 1946.

٣) Henry Bordeaux, *Le visage du Maroc.* In-8°, 310 pp., Colbert, Paris, 1945.

وشؤونه . الا انه كاتبٌ لبق ، وراوية لطيف السرد ، شائق الاسلوب . شاء ان يظهر فضل فرنسة على النهضة المراكشية . فاظهره الى ما وراء الحد . حتى تجاهل كل المشاكل الحاضرة التي يثيرها الحكم الاستعماري . فكان كتابه متفاوت القيمة ، بعيداً في الجملة عن الواقع الحالي.

اما الصحراء فكان من نصيبها كتاب جميل لجوزف تيرول (Therol) دعاه « شهداء الرمال »[1] احياء لذكرى من قضى في سبيل الانسانية والواجب في تلك الصحاري الافريقية اما قتلاً، واما تشريداً ، واما بالكوارث الطبيعية المختلفة . فوصفهم وصور مصارعهم باسلوب جذاب، منذ عهد الآباء البيض في ما بين السنة ١٨٧٦ والسنة ١٨٨١، الى فلاتير ( Flatters ) ورفاقه في سنة ١٨٨١ ؛ الى المركيز دي موريه ( Morès ) (١٨٩٦) الى الاب شارل دي فوكو الشهير ( de Foucauld ) (١٩١٦) الى الجنرال لابيرين ( Laperrine ) (١٩٢٠) ، مشيراً الى ما نتج من تضحياتهم من خير شمل سكان تلك الصحاري خاتماً بالقول المأثور : « ان حبة الحنطة ان لم تقع في الارض وتمت لا تأتي بثمار كثيرة » .

وينبغي ان نشير ، في كلامنا على افريقية الشمالية، الى درس شامل نشره جاك لوفرانك ( Lefranc ) في مجلة « الكاهنة » (*La Kahena* n° 5, 1er semestre 1946) الصادرة في تونس وصف فيه تطوّر الحركة العقلية في تلك البلاد بين الحربين العامتين ، مهتماً خاصة بظهورها الادبي .

واما السودان فآخر ما وقفنا عليه بشأنه بحث جامع لروت ماك كريري ( Ruth Maac Creery ) عنوانه « المسلمون والوثنيون في السودان الانكلو–المصري » ظهر في مجلة « العالم الاسلامي » السابقة الذكر (*The Moslem World*, July 1946.) ، وتناول تحديد بلاد السودان والفروق البارزة بين جنوبيها وشماليها في الدين والعادات والاخلاق .

ولم يفت اميركة الاهتمام المتتابع بشؤون الشرق . فقد انشأت مؤسسة

(1) Joseph Therol, *Martyrs des Sables*. In-12, 288 pp., 1 carte. Publications Techniques et Artistiques, Paris.

الشرق الاوسط في واشنطن مجـلة جديدة دعتها « بمجلة الشرق الاوسط » (The Middle East Journal) تحمل الى قرائها كل ثلاثة اشهر اهم ما تفيدهم معرفته من شؤون الشرق ومشاكله .

وكذلك جاءنا عن اسبانية ان مجلة «الاندلس» الاستشراقية الشهيرة في مدريد استأنفت صدورها بادارة الاستاذ غرسيا غومس (Garcia Gomez) الذي مرّ مؤخراً في بيروت .

۞

وقد كان بودّنا ان نتوسع في التعليق على بحث طويـل نشره في « ديار الاسلام » بيير روندو ( Pierre Rondot ) الاختصاصي بالسياسة الشرقية ولاسيما ما تعلق منها بمشاكل الاقليات ، وخصه بالباكستان . الا اننـا نكتفي الآن بالاشارة الى ان لفظة باكستان لم تعرف بها منطقة ما من مناطق الهند . فهي ليست من الاسماء الجغرافية . انما هي كلمة اصطلاحية مشتقة منحوتة من اسماء خمس مقاطعات هندية ذات اكثرية اسلامية وهي : بنجاب ، وافغانية ، وكشمير ، والسند ، وبلوخستان . أخذ حرف الباء من الاولى ، والالف من الثانية ، والكاف من الثالثة ، والسين من الرابعة ، وأُلف بينها مختومة « بتـان » الخامسة فقيل «باكستان» . واما عدد المسلمين في مجموع المقاطعات الخمس فيبلغ ٥٧،٧٠٠،٠٠٠ على مجموع من السكان يبلغ ٩٥ مليوناً . واما مستقبل هذه الدولة ففي ذمة الغيب . على ان ذوي النظر في الشؤون السياسية الشرقية يوجسون، اذا ما تحققت الباكستان دولةً مستقلةً ، ان ينحرف محور السياسة الاسلامية من الشرق الادنى الى الشرق الاقصى .

۞

ويؤلمنا في آخر هـذا البحث الخاص بنشاط المستشرقين الحاضر ان نشير الى الخسارة الجسيمة التي عُنيناها الاستشراق بوفاة جاك ويلرس ( Weulersse ) في الاربعين من سنيه . عرفنـاه في بيروت مهتماً بالدروس الشرقية على مختلف انواعها ، راغباً في الرحلات الاستكشافية ، مرتاداً كثيراً من مناطق افريقية فآسية ، ناشراً عدداً من الابحاث القيّمة مثل « السودان والبيضان » ( ١٩٣١ ) « افريقية السوداء » ( ١٩٣٣ ) « بـلاد العلويين » ( ١٩٤١ ) « نهر العـاصي » ( ١٩٤١ ) « فلاحو سورية والشرق الادنى » ( ١٩٤٦ ) . رحمه الله رحمة واسعة !

# الفنّ القصصي اللبناني

## في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين *

بقلم فيكتور كلارجي كرم (كيبوغراندي، البرازيل)

تمهيد

في هذه المقدمة المقتضبة التي توجّه دراسة اولى في الفن القصصي في لبنان، ولا ادعي ان تكون دراسة مُثلى، ان احدّد اولاً المدة التي يقتصر عليها بحثي في نشوء هذا الفن وتطوره عندنا. ذلك ان للسنة شأناً في دراسة الادب لا من حيث هي سنة بايامها واسابيعها بل من حيث مولداتها كحوادث لها تأثيراتها المختلفة في نواحٍ عدة. وعبثاً احاول ان احدّد هذه المدة بالضبط، ذلك من شأن التاريخ؛ انما هي تمتد من اوائل القرن التاسع عشر حتى ثلث القرن العشرين.

واما الناحية الثانية، وهي اكثر اهمية، فهي الناحية الفنية وبها اجتهد ان اضع على بساط البحث المقاييس الفنية المعروفة لوضع مختلف انواع القصة، وما كان نصيب ادبائنا منها.

لقد اتسع المجال في هذه السنين الاخيرة للكثيرين من ادبائنا، وصفا جو النهضة الجديدة لهم، فرأيتهم يتهافتون دون شبع على كتابة القصص والروايات، فتسابقهم انت الى قراءة ما يضعون، وفيك شوق غامض لأن تقع، في مؤلفاتهم،

*) اهم مصادر البحث :

Short Story Classics. *Introduction: The Spirit of the Short Story.*

Vincent, *Les genres littéraires.*

Domecq, *Littérature et textes littéraires.*

Brander Mathews, *The philosophy of the Short Story.*

آراء لبعض ادباء الفرنجة وردت في مقدمات كتبهم.

مقالات في جريدة «المكشوف» سنة ١٩٣٧

الحكايات والقصص والروايات المدروسة.

على لوحات وصور من تاريخ امتك الخالد يحملها اول شراع عبر الابيض المتوسط ، وتنتصب من خلال هذه الصور عظمة قرطاجة بما فيها من جلال ؛ كنت تود فيما لو بنيت هذه الروايات والقصص على نقد المجتمع ودرس حالاته ومعالجة مشاكله الواقعية . وتخيب امالك عندما ترى ان هذا الادب العربي الجديد ، الذي طالما ساهم في انشائه وتكييفه بلدك لبنان ، يخونك في ناحية هامة من نواحيه ، وترى ان اكثر اولئك المؤلفين قد اقتصرت اعمالهم على سرد بعض الاقاصيص والاخبار ، وان رواياتهم وقصصهم ليست الا عناوين ضخمة لمؤلفات تحتوي كل ما سمعت عن الفن وعدم الفن ، عن الترتيب وقلته ، عن القصص والحكاية في مواضيع شتى ، من دقة في الوصف الواقعي وغرق في الخيال ، من امعان في دروس اجتماعية وتاريخية ، ومواضيع متفاوتة متباعدة لا صلة بينها ولا تقارب.

والقصة ، وان كانت من اكثر الالفاظ شيوعاً في هذه المدة التي ذكرت ، فهي صعبة غامضة ، تتأتى سهولة استعمالها عن عدم التفريق بين الاعتبارات الفنية ، والتي كلما طبقتها في موقف من المواقف ، وجدت نفسك امام نوع جديد يختلف كل الاختلاف بالوانه الفنية عن النوع الآخر . ومع اننا نرجع مجبرين الى مصادر اجنبية ، فرنسية واميركية ، لتحديدها ، فلا بد لنا من ان نفتش عن المعاني اللغوية التي ترجع اليها مصدر انبعاث مفردات « الرواية » و« القصة » وغيرهما في قواميس اللغة ، وما هي التطورات المعنوية التي لحقت بهذه الالفاظ حتى قام على انقاضها فنون ادبية مبدئية في اصولها ووضعها .

◘

ورد فعل « قص » في قواميس اللغة بمعنى « تبع » فتقول : « قص فلان فلاناً » اي تبعه خطوة خطوة ، وقص الخبر أعلمه وحدث به وذكره شيئاً بعد شيء . ولم تدل اللفظة على ما يقرب من المعنى الذي نقصده اليوم ، إلا في ايام الفتنة بين عثمان وعلي .

والفعل « روى » بمعنى نقل الحديث وحمله . وكانت اكثر ما تستعمل للشعر . فتكون الرواية فناً لنقل الشعر فانشاده .

غير ان هذه المعاني لم تثبت ، وكثيراً ما اختلفت في استعمالها . فقد اختصت

«القصة» في عهد العباسيين بالفن الديني. وهوذا ابن النديم في «الفهرست» لا يأتي على ذكرها بل يستبدل بها مفردات كحكاية وخبر وحديث. واصبحت «الرواية» فناً لنقل الاخبار والنوادر قصد تسلية المجتمع. وقد لحق هذا التطور معاني المفردات منذ وجودها حتى قام على انقاضها فنون ادبية معروفة بوضعها واساليبها. غير ان الادب العربي القديم ظلَّ مفتقرًا لمثل هذه الفنون على الرغم من كثرة المحاولات في النقل والترجمة.

والقصة كما نعرفها اليوم، مع ما لحقها من التحوير والتعبير مدة قرن ونيف، هي «سرد حادثة قوية بشكل فني ينتج تأثيرًا واحدًا معينًا في نفس القارئ» وهي تتنافى بتحديدها ووضعها مع القصة القديمة. وما القصة القديمة الا مجموعة حوادث واخبار شائقة وجميلة تطرق في القارئ اوتاره الحساسة المختلفة، وكأنَّ كل واحد منها يتعهد وترًا معينًا، فيبكي القارئ ثم يفرح، ويغضب ثم يحزن، وينتهي من القصة، وكأنه لم يقرأ شيئًا اذ يرى نفسه متشابكة في عواطفها واحساساتها لا يميّز ايّ تلك الاخبار والحوادث كانت اشد وقعًا وتأثيرًا.

وجرت القصة على هذا الطراز مدةً طويلةً. وقد حاول البعض تغيير اساليبهم واختيار حوادثهم، وكانت محاولاتهم جريئة، الا انها لم تغيّر المجرى الثابت. ولعلهم وصلوا حين قام «ادغر ألن پو» يعالج القصة معالجة فنية حديثة في مقالاته ومقدمات كتبه ووضع دستور القصة سنة ١٨٤٢، ومن ثم كان له اكبر تأثير في الاتجاه الجديد الذي عرفه الادب القصصي.

ذكر «ادغر پو» نظريته الاساسية في بناء القصة قال: «يكتب اديب قصة. فاذا كان حكيمًا فهو لا يكيّف افكاره لتتناسب مع حوادثه، ولكنه ينصرف اولًا الى اختيار تأثير واحد معيّن يريد اثارته في نفس القارئ، ثم يعود من بعدها الى الحوادث، فيخترع منها ما يوافق غايته ويرتبها باقوى الاساليب على ابراز ذلك التأثير المطلوب. فاذا لم يكن في الجملة الاولى ما يساعد على ابراز ذلك التأثير فقد فشل الكاتب في اول خطوة من خطواته. كذلك يجب ان لا يكون في هيكل القصة الانشائي كلمة واحدة لا ترمي مباشرة او غير مباشرة الى ذلك الهدف المرسوم».

فتحديد « بو » للقصة يظهر لنا الفرق الذي شرحناه بين القصة القديمة والحديثة ، وان هذه خضعت لركنين جديدين اولهما « اختيار تأثير واحد معين » ثم اختراع الحوادث وترتيبها لابراز ذلك التأثير المطلوب . ولكن « ادغر بو » يجعل نطاق العمل اكثر ضيقاً وصعوبةً اذا ما درس الاسلوب الانشائي فيقول : « يجب ان لا يكون في هيكل القصة الانشائي كلمة واحدة لا ترمي مباشرة او غير مباشرة الى ذلك الهدف المرسوم » . فيتضح لنا عدم الاقبال او بالاحرى قلته على كتابة القصة ، اللهم في فنها الحديث ، خاصة و « بو » يقطع امل الكاتب ، في مقدمة نقده هذا ، اذا لم ينجح في جملته الاولى على ابراز التأثير الواحد المطلوب .

وكان عصر « بو » عصر خيال بعد اثره في الادب العالمي ، وهو اشهر القصصيين الذين برعوا في فنون الاختراع ، وعرفوا كيف يسخرون خيالهم لادبهم . ثم تفتحت الاعين على نوع جديد في كتابة القصة ، وهو الادب الواقعي ، وترك « بو » مجالاً واسعاً بعد موته لمن استمان بما قد وضعه لأدب القصة الجديدة .

واتى « غي دى موباسان » فاتخذ مبادئ « بو » دستوراً ، غير انه مال بادبه نحو الحقيقة ، فصوّر واقعية الحياة في اكثر مظاهرها ، وترك الخيال لأويقات الحلم اللذيذ .

وقد يعجب القارئ للتطويل الذي الحقت بدرس القصة كنوع وحيد من انواع الفن القصصي ، ولم اعر انتباهي لغيرها ، مع ان للرواية منزلة قيّمة في الادب . فلست بمعتذر عن هذا ، مع اني سأحاول البحث في سائر الفنون القصصية . الا ان لي رأياً في ذلك ربما كنت فيه مصيباً ، وهو ان الفن اللبناني القصصي ، الذي ندرس ، لم يصل الى ارقى درجات الفن في انواعه المختلفة ، على الرغم من تقدمه المحسوس ، وان الادب الروائي وان وقعنا فيه على محاولات عديدة ، فهو لا يسترعي انظارنا بقدر ما فعلته القصة لكثرة انتشارها ان في ادب القصصيين او في مطالعات القراء .

ولقد يجوز لنا الان ان نلمّ بالفروق التي تجعل في فن القصصي انواعاً يختلف بعضها عن بعض بحوادثها ، واشخاصها ، وحجمها . فالقصة ، وقد قلنا انها سرد حادثة قوية ، تترك في نفس القارئ تأثيراً معيناً ، كان من شروطها الاساسية

اذن الا تطول لئلا يقطع سبيل المطالع حادث آخر او وصف على الهامش، او تعليق يخرج عن نطاق البحث. وان اجاز الكاتب لنفسه شيئاً من هذا فهو امين من براعة فنه وحذقه في القصص حتى يضيّق المجال على مخيلة القارىء لئلا تشرد. ويصعب التحديد المادي بالضبط. غير ان الرأي السائد هو ألا تتجاوز القصة الثماني الصفحات.

اما الرواية فقد تختلف عن القصة في اوضاعها الفنية خاصة، وان الوقت فيها يترك للكاتب حريته في التطويل والشرح والرد. فبينما نرى القصة تنحصر في حادثة لها تأثيرها الواحد المعين، نرى الرواية تتسع لكثرة الحوادث، فيتعدد اشخاصها، وينتقلون من مكان الى مكان بل من بلد الى بلد. وبينما تصور لك القصة زاوية من زوايا النفس البشرية في شخص لا تلمح الا بصيصاً من حاله ومعتقده وعواطفه الدقيقة، ترى الرواية تبسط لك المجتمع فتدرس معتقداته ومبادئه ونظاماته وتجعل لك رسوماً تتجلى في شخصية بارزة يفصّل لك الروائي سفر تكوينها مع تأثير المجتمع،ونشأتها مع مساعدة الظروف. هذا ما يجعل الرواية نوعاً مخالفاً للقصة، توضع قصد التسلية الطويلة في تشابك حوادثها وكثرة اشخاصها. على انها وان تعددت الحوادث والفصول، فلا بدّ لهذه الا ان تزدحم حول نقطة موضعية هامة تلخص لنا المأساة. ويرى بعض الكتاب والنقدة ان الفرق الاساسي بين القصة والرواية فرق «طول وعرض» وان الرواية ليست الا قصة مضخمة، وهذا ما يدفع قسماً منهم لاستعمال الكلمتين دون تفرقة، فتراهم يعنونون قصصهم بروايات ورواياتهم قصصاً. غير اني بعد درس مختلف الفروق بين الانواع القصصية ارى مبرراً لهذه التسمية في المعاني اللغوية وحدها، بصرف النظر عن الظروف الفنية. فمعنى الفعل «قص» وهو التتبع شيئاً بعد شيء. يدلنا على القص وعدم المزاولة. اما الرواية وهي نقل الشعر والخبر فتطول ما طالت القصيدة او مهما وسعت مخيلة الراوية للنقل والاخبار.

¤

وليس هذان النوعان بوحيدين في الفن القصصي بل ان الواحد منهما، اذا اختلفت فيه العوامل، قد يولد نوعاً جديداً لا بل انواعاً. فالحكاية ليست

الا درجة جديدة في التأليف الروائي . وقد تكون بوضعها اقرب الى الرواية منها الى القصة ، انما تختلف عنها بعدم اتساعها ، اذ يصعب عليها ان تضم جميع الآفاق التي تجمعها الرواية في تعداد الحوادث ، ووصف اماكنها ، ودرس نفسانية الاشخاص درساً بسيكولوجياً . وقد يتسع المجال فيها لتدوين الخرافات ، وخلق الحوادث الوهمية ، والابتعاد عن الحقيقة والواقع .

ويتسع الفن القصصي اكثر فاكثر ليخلق لنا انواعاً جديدة لها اوضاعها واساليبها الخاصة ، فنرى الى جانب القصة الاقصوصة ، والى جانب الرواية والحكاية ، الاخبار ، والنوادر ، والاحاديث ، والاساطير ، والامثال ، وغيرها . وقد فقد ادبنا الحديث اكثر هذه الانواع فلا مجال لدرسها ، اذ لا فائدة فعلية لنا منها . غير ان الاقصوصة ، وقد عبدت لها طريقاً خاصاً ، يجوز ان نتكلم عنها ولو قليلاً . يدلنا اسمها على انها تشابه القصة في اكثر مظاهرها الا ان الكاتب قد يبتعد عن هدف القصة الاصلي ، ذلك الحادث الواحد المبين الذي سبق ان تكلمنا عنه ، ويتعلق بدرس فكرة فلسفية او اقرار مبدأ ادبي أو اجتماعي ، واذا ما وصل الى ما يرمي اليه اكتفى بما قد وضعه واصبح ما تبقى قشوراً في وضع قطعته . والاقصوصة من الانواع المستحبة في الادب القصصي لسهولة وضعها الفني .

هذه هي اقسام الفن القصصي الرئيسية ، وقد نسعى لتطبيق اصولها في الروايات والقصص التي ندرس . غير ان الاتجاهات الاخيرة القيمة التي ظهرت في الادب الحديث تستغرب القيود والسلاسل التي يضعها علماء الادب ، ان صح التعبير ، اذ تحدد مجال الاختراع والخلق وتحصر العبقرية ، وما للعبقرية ان تنحصر . ولكن هناك اصولاً مبدئية يجب ان نقرها ، فكما اننا لا نسمي النثر الجميل مهما تسامت بلاغته « شعراً » ، لا نقدر ان نسمي سرد الحادثة القديمة المؤثرة « رواية » ، ولا المجلد الضخم المتتابعة فصوله « قصة » .

◘

في كل يوم من ايام حياتنا حادث يجمل منه التاريخ له مادة . وفي كل يوم من حياة الامة حوادث يستغلها المؤرخ والاديب معاً لتكون لها ينبوعاً .

وبينما ترى المؤرخ يبحث في مسببات الحادث وعلله ، في تطوراته والنتائج التي ادّت اليها هذه التطورات ، يبحثها على ضوء الطرق الحديثة في علم التاريخ ، ترى الاديب يتصوّر الحادث بشكل يناسب روايته واشخاصه ، على انه ، وفي هذا يخفق اكثر الادباء المؤرخين ، يحفظ للمادة صفحة حدوثها ويكون التحوير على هامش الحوادث لا في اصولها .

والتاريخ المّ يكوّن والادب وحدة قائمة في الرواية ، وإلّم تلحقه ريشة الكاتب تعبّر عن الفن والذوق ، يبقى جافاً بعيداً عن كل صلة بنفس القارىء والاديب معاً . فالرواية ، اذا متّت الى التاريخ بصلة ، فلكي تغيّر مواضيعها المادية المبتذلة . ولقد تتشعب آراء الروائيين في انتقاء القصد وانتهاج الاسلوب فنهم من يوضح حقبة من تاريخ بلاده كانت غامضة لا بل مجهولة ، كما فعل فؤاد افرام البستاني في ادبه الروائي ، ومنهم من يخلّد عهداً كانت بـه امّته تفرض على العالم سيطرتها وتسجل مدنية لا تموت . اما ان يُدَسّ التاريخ في كتب الادب على طريقته العلمية الجافّة ليكوّن فصولاً على حدة ، يكون بها المؤلف مدرّساً او باحثاً ، فلقد يسأم المطالع قراءته ، ويفتش عنـه لا في القصة والرواية بل في النصوص الاصلية او في كتب التاريخ .

هذا الفن في تكييف التاريخ ادباً ينقص ادبنـا الروائي التاريخي ، ولو راجعنا اكثر المؤلفات في القرنين الاخيرين ، لما عثرنا على شيء منه الا في «لماذا» لفؤاد افرام البستاني ، على الرغم من كثرة المحاولات .

سليم البستاني

ولقد بدأت هذه المحاولات مع سليم البستاني يكتب في مجلة « الجنان » روايات متسلسلة منها تاريخية ومنها اجتماعية . وما « زنوبيا » الا احدى رواياته التاريخية الهامة . تدور حوادثها بين بادية تدمر وروما . يقدمها لنا الكاتب بتفصيل حالة الرومانيين في امبراطوريتهم الواسعة الارجاء ، ثم ينتقل الى تعداد حروبهم وتفصيل المعـارك ، حتى يصل الى اصطدامهم بالفرس وكيف رجحت كفة الميزان بدخول ملكة تدمر الحرب . وتتسع آفاق الرواية لمجرى جديد . وكأني بالكاتب يشعر نقصاً فيها ، فيربط حوادثها بالحب ، اذ يخلق لابنة زنوبيا شاباً من اعرق الانساب الرومانية

يهرب من رومة ويدخل في خدمة والدتها . وهنا تبدأ العقدة ، اميرة تدمر تعشق رومانياً ومصالح البلدين على خلاف ، الا انهما يبقيان وفيين على العهد حتى يلتقيا في رومة .

رواية ضخمة طويلة ، ملأى بالحوادث المختلفة ، الا انها تدور حول موضوع واحد ، مملكة زنوبيا . جميل ان نقع على هذا التناسق مع من بدأ فن الرواية ، واجمل منه ان نرى التاريخ ينسل بين هذه الحوادث دون صعوبة ، بينما نقع فيما بعد على روايات تنقسم في فصولها ، وكأنّ واحدها غريب عن الثاني ، يؤلف وحدة تاريخية قائمة بذاتها جمعها المؤلف ليجعل منها مجلداً ضخماً . ومهما يكن من امر فاننا نغالي اذا قلنا ان سليم البستاني بلغ شأواً بعيداً في كتابة الرواية . فهو اول من تجرأ على محاولة من هذا النوع . غير ان محاولته ظلت بعيدة عما يسمونه الفن الروائي . تراه ينتقل ابان الوصف مثلاً الى شرح بعض العادات السيئة فيستطرد على اثر كلمة او فكرة عرضت له ، فيترك الحادث الاولي ويلتحق بكلمته او فكرته .

يتكلم عن الحب في « الهيام في جنان الشام » واذا ما وصل الى حلّ نهائي كانت الشهوة مسببة اولى لهذا الحب ، فيفضل محبة النفس عليه . واذا ما وصف الشجاعة في الحروب قال في الفروسية انسلاخ عن السجية الانسانية ، فمثل هذه الشروح الاضافية الحاوية لا معنى لها في سياق بحث الروائي .

اما الاشخاص فقد لا تتبين فيهم الا مظاهرهم الخارجية العامة ، وقلما درس المؤلف نفسيتهم .

الا اني عجبت لامر رأيته غريباً وهو انه اذا اشتدت الحالة النفسانية في الرواية ، وانتظرت من المؤلف تحليلاً للعوامل الفعّالة وتأثيراتها في انفس اشخاصها ، سمعتهم ينطقون بالشعر ، وينظمون القصائد الطوال . فيضحك القارئ . ثم يذكر ان المؤلف شاعر ينظم في ساعات انفعالات نفسه وينسب شعره لاشخاص روايته . ومع هذا كله فضل البستاني على الادب الكبير . فهو اول من تجرأ على محاولة روائية كما قلت ، ونجح ان لم يكن كل النجاح ، الا انه حطم سداً منيعاً ومهد السبيل لمن اتى بعده .

على ان كثيرين لم يستفيدوا من هذا التمهيد، وكادت لامبالاتهم تسبب تهشيم الرواية التاريخية . وليست « فتاة غسان » و« ارمانوسة المصرية » و« المملوك الشارد » الا شواهد لما قلنا ونقول . وشاءت الظروف ان تعيش هذه المجلدات فتهافت على قراءتها جمهور غفير وقع على تاريخ الاسلام فيها ، فقالوا عنها « روايات تاريخية » واني لا الوم المؤلف على ماكتب فربما كانت له اعذاره، انما اعدّ نفسي بعيداً عن فهم الفنون الادبية اذا اخذت بهذا القول . فليس التاريخ من صنعنا لنهشمه ، وليست الرواية بضاعة « نغيركها » نحن لنتصرف بها كما نشاء . ولقد دوّن جرجي زيدان قسماً من تاريخ الاسلام في سلسلة روايات مختلفة ، وخص كلّاً منها بحقبة معينة من هذا التاريخ . وكانت هذه الحقبات ملأى بالحوادث والاضطرابات ، ملأى بعظمة امة جديدة تفيق على دين جديد ، فتكتسح ما جاورها من الممالك والدول ، وتمد يدها لافريقية فتسيطر ، وتهاجم اوربة فتبني لها مقرّاً حصنته اربعمائة سنة تقريباً . سيطرة دين ، عظمة امة ، شجاعة اقوام ، مدنية علوم فادب ، جمعها الكاتب لتكون له مادة لروايات ضخمة ، فلم ينجح الا بتدوين الحوادث وسردها . ولو انتقينا واحدة من هذه الروايات ودرسناها درساً رصيناً شاملاً لاتى نقدنا اكثر وضوحاً يرتكز على اسس ثابتة .

« فتاة غسان » مجلد ضخم يناهز في حجمه الاربعماية صفحة ، يحتوي على غرام وتاريخ ، ويقول المؤلف « انه يشرح حال الاسلام من اول ظهوره الى فتوح العراق والشام مع بسط عوائد العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم ووصف اخلاقهم وازيائهم وسائر احوالهم .» يقدم الكتاب بدرس مسهب عن بني غسان وبني لخم ، وعن علاقات هؤلاء بالفرس ، واولئك بالروم . وانه في سنة ٦٢٩ حكم الغسانيين ملكان جبلة بن الايهم يقيم في البلقاء ، والحارث ابن ابي شمر ومقامه بصرى .

هند ، ابنة جبلة وبطلة الرواية ، تحضر سباق خيل مع ابيها فتتقابل وفتى اسمه حماد وتهيم به . يلتقيان مراراً ويتعاهدان على الزواج على الرغم من انها لم تعرف بعد نسب حماد . الا انه يسكن مع ابيه وخدمه قصراً مجاوراً

قصر جبلة . يطلب ثعلبة بن الحارث يد هند ابنة عمه ، ويدفعه حسده لان يغدر بحماد ويضطهد اباه. وتتسع عقدة الرواية هنا ليجعل المؤلف حماداً منذوراً لدير بحيرا. لا يقارب امرأة ولا يشرب مسكراً الا بعد الحادية والعشرين ، وقد اطلع على سر من اسرار حياته.

هند مريضة ترفض الزواج من ابن عمها . حماد مبعد الى الحجاز يفتش عن قرطي مارية ، فيرجع صفر اليدين ، فيلقى والده وقد ساقه الجند الى حضرة هرقل . يطلع حماد على السر فيقع في ارتباك وحيرة غير ان الحوادث لم تشدد بوفاء النذر . وتطول الشروح ، وتتعدد الحوادث ، فيلتقي حماد بهند في دير هند بالمدائن ويتزوجان.

يتخلل كل هذه الفصول معلومات تاريخية هامة عن نشأة الاسلام وحروبه في اول انتشاره . ولكل من هذه الفصول صلة بهند وحماد غير انها لا تمتزج بعلاقاتها لتكون معها وحدة تامة في الرواية . وكأن الكاتب قد ادخل التاريخ عمداً في روايته ليعنونها بالتاريخية،لا ليجعل منها مؤلفاً لذيذاً فيه شيء من فن الوضع الروائي ، ولا اقول اشياء ، يرتاح القارئ لمطالعته . لقد اطلع على هذا التاريخ المليء بالاحداث فاراد ان يظهر لنا معارفه يدرنها في مؤلفات ضخمة يجعل منها روايات ، فتراه مثلاً يعيد حديث ابي سفيان عن دعوة النبي محمد في حضرة هرقل ، ويزيد في الشرح والتطويل حتى يظهر لنا اصطناع الحديث وعلاقته الواهية بسياق البحث الروائي .

يذكر الكعبة ويفصل اهميتها ، والى من ينتسب الذين يقومون بخدمتها ، وكأني بهرقل يضجر من طول المقدمة فيكلم اعوانه ، ثم يقول لقد اكتفينا من هذا فأخبرنا عن محمد . وتجتمع هذه المعلومات التاريخية لتكون جبهات منيعة في « فتاة غسان » .فاذا ما نسيت التاريخ في فصول عدة وتخيلت حماداً وهنداً حبيبين يلتقيان بعد بعاد اليم ومصاعب جمة ، تصطدم باحدى الجبهات التاريخية ، تؤلف قسماً على حدة ينفصل كل الانفصال عن الرواية . فلو شئت ان تحذف هذه المقاطع باكثريتها الساحقة لقدر لك ذلك ، وعجزنا عن تسمية « فتاة غسان » رواية تاريخية ، وقد لا يبقى فيها الا الغرام وبعض الاحداث

الاعتيادية. وكيف نتسامح في نعتنا مؤلفات جرجي زيدان بروايات، والرواية الصحيحة الكاملة فنياً وحدة قائمة بذاتها لو حذفت منها جزءاً رأيتها تنهار، او اهملت فصلاً شعرت بالفراغ الذي يحدثه اهمال هذه الصفحات القليلة. وغريب الّا يأتي هذا الفصل بين حوادث الرواية عرضاً بل يتعرض له الكاتب عمداً فيقول: «نترك عبدالله هنا، مثلاً، انرى ما حلَّ بجهاد الخ.»

اما اشخاص الرواية فلقد يتناسبون مع حوادثها ووضعها الفني، وهم صور جامدة لا حياة فيهم ولا حراك. ومهما تطلعتُ أليهم عن كثب، ومهما راجعت تأثيراتهم النفسانية، فلا اقع على شيء يذكر حتى في وصف بطلة الرواية هند، في احرج المواقف واشدها تأثيراً اذا ما اهتاجت عواطفها وذكرت حبيبها جماداً وما يحف به من اخطار، لا ترى غير دمعة تترقرق وجسم ينحل.

فالرواية التي تخلو من الفن في تناسق حوادثها لتأتي وحدة كاملة لا يجوز في فصولها حذف او انقاص، والرواية التي تخلو من دروس نفسانية لاشخاصها حتى في اشد مواقفهم عاطفة وقوة، كيف لنا ان نسميها «رواية». والتاريخ، ان لم يكتب بريشة كاتب فنان بارع، وألف فصولاً مستقلة لا صلة وثيقة لها بموضوع الكتاب، لماذا نقرأه في «فتاة غسان» وقد نسأمه لما فيه من نقص وتحريف، ولا نفتش عنه في النصوص الاصلية. وكيف نجرّم الادب العربي بعد مائة سنة مثلاً ان لم يخلّد لنا مثل هذه الروايات ليجعلها في مصف المؤلفات الشهيرة، وما فيها ما يفسح للخلود مجالاً الا انها كتبت بالعربية، وحبذا... او كيف نريد ان نعتبر ادبنا هذا ادباً عالمياً ان خلد محاولات ناقصة كهذه.

**فؤاد افرام البستاني**

اما التاريخ في ادب فؤاد افرام البستاني فهو مثال للوضع الفني في هذا النوع، ان في روايته «لماذا» او في حكاياته، ولو سماها روايات «على عهد الامير». ولو درسنا «لماذا» كغيرها من المؤلفات، لتبينا فروقاً كثيرة تبعدها عن روايات جرجي زيدان مثلاً، في المتسع الفني البعيد. ورب معارض يقول ان اتصالنا الوثيق بالآداب الغربية في هذه السنين الاخيرة جعل ادباءنا في

والتاريخ الذي استخدمه فؤاد افرام البستاني في «لماذا» دوّن قسماً منه على شكل حكايات صغيرة جمعها في كتاب «على عهد الامير». ولقد نجح في الوصول الى الهدف الذي عيّنه اذ « فتح نافذة صغيرة على شخصية ذلك الرجل العظيم.»

ولا بدع ان اجمع اشهر ادباء العصر على مدح هذه المجموعة، لان البستاني – وكان حديث السن بعد – فتح سبيلًا واسعاً في ادبنا الناشئ واظهر للملأ، كما قال في مقدمته: « ان في كل مقصورة من مقاصير بيت الدين رواية...»

ففي الكتاب وصف لاخلاق اللبنانيين، وصف لتقاليدهم وعاداتهم. فيه تصوير حي لحياة الامير بشير، لديوانه وحاشيته. والحياة في هذا التصوير دفعتنا ان نحسب انفسنا امام قصر بيت الدين نسمع محاكمات الامير، عادلة ام ظالمة، نراه غاضباً وراضياً، اميناً على العهد (كمكحلة المير) وعادلًا مستبدًا (بشر القاتل بالقتل): فشخصية الامير وحدها كانت تربط الكتاب بالتاريخ. على انني لم ادرك لماذا سمّى المؤلف مجموعته «روايات»؟ او لم يكن اسم « الحكايات » اقرب لنعت هذا النوع من الفن القصصي؟

◘

ومع ان الناحية التاريخية كانت اكثر نواحي ادب اللبنانيين اهمية في هذين القرنين الاخيرين، فلقد لفت بعضهم انظاره الى المجتمع لينتقد اوضاعه البالية، وعاداته القديمة، فافتقرت مؤلفاتهم، لا اقول الى وصف تلك الاوضاع والثورة على العادات، انما الى اصلاح اجتماعي حقيقي له اسسه ومبادئه وتطوراته. وكما لا يكون الاديب ذلك المؤرخ الذي شرحنا شيئاً عنه، فما هو ايضاً بواعظ مبشر ينقل آيات دينية ويدعو الناس للتوبة لئلا تصيبهم الدينونة. ولكن للقصة او الرواية الاجتماعية اثرًا لا يضاهيه اثر الكرز والتبشير.

هكذا كان رأي سعيد البستاني عندما كتب « ذات الخدر ». والمجتمع فسيح واسع ترى فيه انعكاسات ميول الناس على اختلافها. محاولات في السياسة من ديمقراطية وفردية، محاولات في العائلة وتطوراتها، ومحاولات في حياة الفرد. غير ان الادب اللبناني يفتقر الى قسم من هذه الانواع. وعلى الرغم من ان بعض

ادباؤنا عملوا في هذا الحقل فلا اراهم الا مقصرين. كثيرون هم الذين كتبوا رواياتهم وقصصهم، وجهدوا في تطبيقها على مغامرات وعواطف كل فرد. وقليلون هم الذين تعدوا حدود الفردية ليصلوا الى العائلة، فيثوروا على القديم في التربية والزواج. واقلّ منهم هم الذين درسوا حياة المجتمع في الامة، درسوا فيها العقيدة والواجب واساس الحكم، وتعهدوا في مؤلفاتهم نشر هذه الآراء المصلحة. ومهما يكن من أمر، فلا بدّ لنا الا ان نلمّ بالاجتماعيات التي اثرت في ادبنا ولو ضئيلة.

سعيد البستاني

والمؤلف الوحيد الذي اتخذ له هدفاً معيناً، ودرس زاوية من المجتمع، ونقد كل ما فيها من سيئات هو سعيد البستاني. فلقد تكلم في روايته عن اقطاعيّ مصريّ اجبره تقدّمه في السن الى ترك وظيفته والرجوع الى «عزبته» يؤمن زرع اراضيه وحراستها. يتزوج من احدى فتيات قصر، نازك، على كون جمالها وشبابها لا يتناسبان مع اخلاقه الشرسة وشيخوخته الكئيبة، فتحب فتى في مقتبل العمر اسمه امين. ويكون في خدمة نازك فتاة نضرة اسمها صديقة تعلق بشاب يوافيها الى حديقة القصر فيلتقيان. تنشب الحوادث ههنا، امين مبعد، وبهرام على خلاف مع زوجته فيمرض ويموت. ثم يأتي أمين ويذلل عقبات كثيرة ليتزوج من نازك الا انها تلاحظ تقارباً خلقياً بينهما. ثم ترى شامة سوداء على كتفه فتعرفه اخاها وتنتحر.

رواية ملأى بالحوادث الشائقة والمواقف العاطفية المستحبة. الا ان حبكها ليس بالفني ولا بالمقبول. وكأنّ الكاتب عارف بتقصيره فيقر بما له وما عليه في مقدمة روايته ويقول «بانها لا تجيء من سائر الوجوه مثل روايات الغربيين». وهذا التقصير الفني ابعد من ان يعذر عليه البستاني لان قوله في المقدمة يشهد بانه عارف باصول الرواية عند الغربيين فكان عليه ان يختار بين اثنتين: اما ان تأتي روايته كرواياتهم، واما الّا يكتب.

ولو لم يفز بنبالة القصد، على حد قوله، لكانت «ذات الخدر» رواية اعتيادية كغيرها من التي درسنا، فيما عدا الضعف الفني انتقالات مفاجئة،

واستطرادات كثيرة ، واوصاف ضئيلة لحالات الاشخاص النفسية . هذه كلها تصغر قيمة القصد الذي اراده الكاتب ، فالرواية لا تعيش بمادتها فقط ، ولا تحيا بالتاريخ او الاجتماع او الحب الذي تحتويه ، انما تحيا من حيث هي رواية تكوّن متعة فنية شائقة ، بكل ما فيها من حوادث واوصاف ووضع واسلوب .

جبران خليل جبران

وان يكن سعيد البستاني اول من اتخذ له هدفاً اجتماعياً معيناً جعله محور رواياته ، فغيره تأثر بالاوضاع الفاسدة في لبنان وقام يحاربها باسلوب قصصي جديد ، يتخذ له الواقع اساساً يدعمه بالخيال ليظهرها صوراً تنعكس عليها نواحي هذا المجتمع الفاسد في نظره ، بعقائده وعاداته . ولربما وجدنا بعض الشبه بين قسم من اقاصيص هذا الكاتب ، وهو جبران ، وبين «ذات الخدر» . ولم يكتف جبران بهذه الناحية الاجتماعية بل تعداها الى كثير غيرها جعلها محور حكاياته واقاصيصه . فنشهد في مؤلفاته ثورات العاطفة والحرية والنفس الطموح ، ثورة على رجال الدين ، ثورة على الاغنياء الاقطاعيين ، ثورة على التقاليد العمياء ، ولربما جمعها كلها في حكاية واحدة كما في « خليل الكافر » .

ولو نفذنا الى اعماق نفس جبران من خلال مؤلفاته لشعرنا ان تلك العاطفة المتأججة ، هي التي تساعده على درس اوضاع المجتمع . فما جبران بالمفكر الاقتصادي او السياسي ، وما هو بالعالم يبحث عن اسباب التطورات الاجتماعية وما تصل اليه ، انما هو شاعر ، يستند الى عاطفته واسلوبه الجديد . فاذا ما وقف خليل الكافر ليخطب في اهالي القرية فعاطفة جامحة واسلوب قوي ، واذا ما تكلمت مرتا البانية فعاطفة اشد جموحاً . على انه لم يظهر حقيقة هذه الاوضاع التي درس ، بل ضخمها وغالى في وضعها ، فاصبحت ضرباً من الخيال . فرجال الدين عنده لصوص يسرقون اموال الفقراء ، يتنعمون على الخزّ والديباج ، ياكلون اللحوم ويشربون الخمر ، وينام غيرهم على القش ويقضم فتات الخبز اليابس . اموال الدير واراضيه ملك الفقراء المساكين ، والدير مأوى لهم ومساعد . فاين هذه الافكار والعقائد من عصر يقتسم السيطرة فيه كاهن القرية واغنى اهاليها . اين هذه العقائد من يوم كان الكاهن فيه سيد الامر والنهي ، فلم

العطاء والرحمة ، ولمّ لا يبني لنفسه ملكاً على اساس الدين . هذا ما اراد ان يحاربه جبران غير انه تطرف في البحث والتطويل حتى اظهر رجال الدين شياطين يسرقون ويتنعمون ويتلذذون على حساب الدير والدين ، يعدون ايديهم الى جيوب المؤمنين ويقيمون الهياكل على قبورهم . فهذا التطرف جعلنا نفتش عن سبب قوي لثورة جبران خارجاً عن محبته للحرية وطموح نفسه ونفورها من الاوضاع القائمة .

ولربما تأثر جبران في سبك افكاره بالرومنطقيين كما تأثر في اسلوبه ، فاتخذ له بصيصاً من الحقيقة واضحاً وفسح المجال واسعاً لخياله . وقد نقع على بعض اقاصيصه فلا نراها الا خيالية بحتة ، لا تصوّر من الحياة ناحيـة ، ولا تتصل بالواقع بصلة . هنا تتعرى القصة فنلمس اشخاصاً خلقهم جبران وجعلهم يمثلون هذا الدور ، او ذاك ليتكلم بالسنتهم ويبثّ في الناس ما يختلج به صدره . فعلي الحسيني ، في « رماد الاجيال والنار الخالدة » راعي غنم في سهول بعلبك لا يعرف كيف يهمس انّاته في اذان الدجى ، ويحب ويجهل من يحب ، فيوجه كلامه لاطياف الخلود لتنبه عن عاطفته . هذا ما يجعلنا نشك في اقتراب جبران من حقيقة المجتمع اللبناني ، وله خيال بعيد الاطراف بعيد المنال .

ومهما يكن من امر فأثر جبران باقٍ ، ربما لا يخلد بالفن القصصي ، وهو ضعيف عنده ، انما يبقى باسلوبه الجديد وطريقته الفنية المبتكرة . اما القصة فانا واثق كل الثقة ان جبران لم يعرف اصولها ولم يفتش عنها ، ولم يلتفت الى الحكاية والاقصوصة في اوضاعها الفنية ، انما كتب فكانت بعض كتاباتـه حكايات واقاصيص تؤدي الرسالة التي ارادها فتركها تخلد بافكاره العاصية الجديدة ترتدي اسلوباً جديداً مستحباً .

◘

طرقنا في درسنا الى هنا ناحيتين من اهم نواحي الادب القصصي اللبناني ، وشعرنا في سياق هذا البحث بروابط وثيقة تجمع التاريخ والاجتماع فمررنا بهـا غير مطولين . ونصطدم بعد ذاك بصدمة قوية ترجعنا الى المقدمة فنقول ان ادبنا هذا يفتقر الى مدارس او مذاهب تجمع بين ادبائنـا ليوجهوا آراءهم

وافكارهم واساليبهم نحو هدف واحد، فيهون على الناقد درس مؤلفاتهم او بالاحرى درس مذهبهم الواحد. فالادب الفرنسي مثلاً عرف الرواية التاريخية والوصفية والنفسانيّة، ثم الخياليّة والواقعيّة الى ما هناك من انواع مختلفة. اما في لبنان فقد رأينا من اتخذ التاريخ مادة لاحدى رواياته ثم مال في رواية اخرى الى درس المجتمع، وسترى احدهم يعلو مع الخيال فيبدع ثم يماشي الحياة فيتتبع دقائقها فيصعب علينا تعيين الكاتب في مكانه من المذاهب والمدارس. على ان هذا التنوّع قد يكون اقرب الى الحياة.

**فرح انطون**

ولكن لا البث ان اشهد محاولة جد جميلة في فن الرواية، مع ما فيها من السيئات طبعاً، اجتهد ان اضعها في مصف الروايات التاريخية فاراها تميل بابحاثها للاجتماع، وان اقول عنها اجتماعية فاذا فيها، عدا الاجتماع، دروس دينية وبسيكولوجية وفيزيولوجية. هذه الرواية هي «اورشليم الجديدة» لفرح انطون. ولما رجعت الى مقدمتها، وجدت الكاتب ينبهنا الى هذه الناحية ويقول انه عمل جهده لجمع هذه الدروس المختلفة والمتباعدة في انواعها؛ وهذه النواحي المختلفة التي طرقها فرح انطون هيأت لروايته جوًّا فسيحاً تملأه حوادث هامة لا احداث صغيرة تافهة. فلم تجعل منها رواية معركة يتضارب فيها جيشان، ولا واقعة غرام بين ايليا واستير، بل جمعت فيها كل شيء. فهي فتح العرب لبيت المقدس ومعاهدة الروم على يد عمر، وهي هجوم المسلمين على كنيسة الدين المسيحي، هي ثورة الدين الجامحة. وفيها، عدا هذا كله، عاطفة رأيتها غريبة في نوعها يدعمها بعضهم بانها حب اعمى قلبي استير وايليا. ولكنه ليس بالحب العادي، انما هو عاطفة عالَمين مختلفين يفرقهما دينان، دين موسى ودين المسيح. على ان الروح اليهودية ظهرت اجلى واكثر حقداً اذ رفضت استير الزواج من ايليا، مع انها احبته حتى الموت، لقد رفضت لانها يهودية تتعلّق بدينها وتخاف محيطها واهلها. وقد كتبت في «كتاب يومياتها»: «فقد اضيف الى الاسوار التي بيني وبينه سورًا جديدًا لا يهدم ابدًا. هو مسيحي وانا اسرائيلية. فاقتراني به يكون عارًا عليَّ عند قومي. بل انا نفسي لا ارضاه لنفسي لانني لا اقدر ان انسى مصائب امتي واحالف اعداءها عليها».

هذا هو صوت شعب بأسره وليس بصوت استير ، هذه هي الاسرائيلية تتكلم وليست حبيبة ايليا . ولقد نجح الكاتب نجاحاً تاماً في ابراز ذلك الحقد الذي يكنه هذا الشعب لغيره اذ انه وجد لاستير عذرًا اجتماعياً لرفضها الزواج وهو العار عند قومها ، ولكنه استدرك ليثبت ان هذا الحقد اصيل في نفسها لا تنساه ، وكيف تنسى مصائب امتهـا وهي مصائبها . ههنا ينفسح المجال لفرح انطون فيظهر لنـا حقيقة المجتمع لا بوصفه او تصويره انمـا بواسطة اشخاص روايته . تسمعهم يتكلمون كاستير بالسن اممهم ومحيطهم ، يكبرون عواطفهم بعواطف المجتمع ، فتتبين ، وانت مع ارميا او مع الراهب ، احوال رؤساء الدين المسيحي ، ومع استير صورة المجتمع الاسرائيلي . ولربما احتاجت هذه المجتمعات اصلاحاً عن طريق الدين فترى الكاتب ينبري لها بلسان اشخاصه كما ذكرنا ، واصلاحاته معقولة ناتجة عن اختبارات فنية اجتماعية ، لا عن دروس عقلية وهمية . فالدين عنده ليس بالمسيحي او الاسلامي او اليهودي انما هو دين « الرفق والمحبة والصفح » ، والكافر عنده ليس بالرجل الذي يجحد لاهوت المسيح ويعمل بوصاياه ، انما ذلك الذي قد يعتقد به ولا يعمل بوصاياه .

ولم تكفِ المادة لتجعل من « اورشليم الجديدة » مؤلفاً قيّماً انما أوجد لها فرح انطون اطارًا ثابتاً كانت به اقرب المحاولات القديمة من الفن الروائي . فقد لا تشعر بتلك الانتقالات السريعة والاستطرادات الخالية الّا قليلاً ، وعلى الرغم من بعض التطويل والشرح (خطبة على الجبل) و(حديث الشيخ سليمان) تشعر بوحدة في الرواية . غير ان التوازن الفني مفقود ، فتارة يتخلل صفحات عديدة معنى واحد مكرر ، واخرى تجهد نفسك لتفرق بين الافكار والآراء المتراكمة في الصفحة الواحدة ، وطورًا يبدأ الكاتب مناقشة دينية ( ايليا واستير ) ترتكز على التفكير والتعقل ، ثم يترك العقل جانباً ويتحدى العاطفة فيتغنيان ويتحابان . فهذا ما جعلنا نقول ان اورشليم الجديدة لم تكن غير محاولة في الفن الروائي ، انما اقربها .

وكأني بالظروف شاءت ان تجمع على حدة الادباء الاقدمين ، نوعاً ما ، الا واحدًا منهم ، فمررنا بانواع مختلفة درسنا فيها افكارهم وعقائدهم واساليبهم .

وتركت لنا هذه الظروف قسماً من ادبائنا المعاصرين يؤلفون جبهة متأخرة يستقل الواحد عن الاخر استقلالاً تاماً ، ولكن جمعتهم اواصر ربما كان لها الاثر الواحد في ادبهم على اختلاف ابوابه ونواحيه . ظهرت عندهم نهضة في الفكر والفن والاسلوب ، تراءت الحياة لبعضهم فصوّرها كما هي ، واجتهد غيره في تكييفها ليصعد من عالم المادة والحقيقة الى عالم الخيال والتصور . وعلى الرغم من هذا التضارب في الاسلوب فقد عملوا جهدهم على ان يقتربوا من الحقيقة الفنية في القصة او الرواية وفتشوا عنها لا في رؤوسهم فقط بل درسوها في مؤلفات اشهر قصاصي الافرنج .

وتفرّع هذا الاثر الى ان اصاب محتويات الرواية في موضوعها واشخاصها فمالوا بها نحو الوضع الرومانطيقي ، فكأني بنا اليوم نقطع في ادبنا الرواني مرحلة تشابه مرحلة « الرومانتيزم » في الادب الفرنسي . فأثر الشخصية او الفردية ، وتصوير العاشق هزيلاً اصفر في حالة نفسانية غريبة ، حبه غامض ساكت ، كل هذه جلية في قصص تقي الدين وعواد واحمد مكي ، لا سيما وهم الذين اعترفوا بان هذه القصص ، وان فقدت شيئاً من قيمتها الاجتماعية ، فانما هي قصص خاصة بفرد تحمل في حوادثها اطيب الذكريات .

وها هو تقي الدين يقول في مقدمة « عشر قصص » :

خليل تقي الدين « انا اكتب القصة لاصوّر الحياة كما تراها عيناي لا عينا غيري .» ثم ينهي مقدمته بقوله : « واذا خلت هذه الصفحات القصيرة من كل شيء . فهي لا تخلو من ميزة واحدة تجعلها حبيبة اليّ وهي انها قطعة من قلبي» . وهكذا يظهر تأثير الفردية لا في اشخاص الرواية فقط انما في تصريحات المؤلف حتى انه لا يرى في الناس الا اشخاصاً يجب عليهم ان يأكلوا ما هو يمضغ . والحقيقة غير هذه فقلب خليل تقي الدين ليس بقلوب الناس ، والحياة التي رآها بعينيه وصورها ليست المجتمع ، انما رآها من خلال قلبه واراد ان تكون كما رآها .

...قال احدهم : خليل تقي الدين زعيم المدرسة التصويرية ولا ارى مسوّغاً لهذه التسمية ، وقد نتحقق عدم وجود تلك المدرسة . وغريبٌ ان يقال عنه

زعيماً ، وما من احد ليتزعم عليه ، وان يذكر نوع مدرسة ما من اديب قد انضمَّ اليها . انما تنبهت لامر وهو ان خليل تقي الدين ، وقد جعل قصصه ترتكز على الوصف والتصوير ، تعلّق بهذه المظاهر وانكر حقيقة القصة الفنية حتى تسمعه يقول في مقدمة « عشر قصص » : « ولكنني اذا ما عدت الى نفسي رأيت الحقيقة تنكر هذه الحوادث والعقد والحلول لانها امور متكلفة يجيء بها الكاتب ليتلهى بها السذج من القراء . ويضحي في سبيل ذلك بجوهر القصة وهو عرض الصفحة من صفحات الحياة في الشكل السهل الواضح الذي تبدو فيه » . وجوهر القصة عند خليل تقي الدين الوصف والتصوير كما قال في احدى محاضراته : « والحادثة في القصة الحديثة ليست الا عرضاً ، اما الجوهر فهو ما يقصد اليه الكاتب من وصف وتصوير » . واعجب بعد هذا ، كيف يجرؤ الكاتب ويقول بانه يصوّر الحياة . وهي التي تضم الكذب والخداع والخيانة والصدق والوفاء والاخلاص ، كيف به يمثل كل هذا في قصصه ويدعي بانها تأتي سهلة واضحة وان غيره ، من يسجل في قصصه كل هذا ، يكتب للسذج من القراء . وانا لا اناقش الاديب نظريته في القصة ههنا ، انما حرت في امري لهذا الخلط في مقدمة كتابه ، وعدت الى نفسي لارى الحقيقة ، كما فعل هو ، بعد قراءة قصصه فوقعت على تناقض صريح ما بين المقدمة والقصص . شعرت بانه اراد ان يبتدع فكرة خاصة به ففعل في مقدمته وذكرها في محاضراته ، ولكنه لم يطبقها في قصصه . اراد ان يقولوا فيما بعد ، خليل تقي الدين أوجد المدرسة التصويرية ، انما اوجدها بالقول لا بالفعل . ونثبت ما نقول اذا ما درسنا قصتين من قصصه وهما « فارس الشامي » و« جحيم امرأة »

و« فارس الشامي » في رأيي اقرب قصة لمبدأ خليل تقي الدين الذي تكلمنا عنه من حيث دقة الوصف والتصوير . ولا بد ، وانت تقرأها ، ان تشهد صوراً بعيدة تتبين اشخاصها بكل ما فيهم ، بالبستهم وحركاتهم حتى في كلامهم .

في كل سبت يحمل سليم البوسطجي البريد الى اهالي القرية ، فيصور لك الكاتب صبية يتراكضون لملاقاته فيتزاحمون على من يمسك زمام البغلة ، وامهات ينتظرن عودة اولادهن وفتيات قدوم العريس المنتظر من بلاد بعيدة كثيرة

الاسماء عرفوها باسم « اميركا » . وبعيد اهالي القرية كلما حمل لهم ساعي البريد خبراً مفرحاً فيشترك وبفلته في افراح العيد .

كان ذلك اليوم يوماً مشهوداً تتهافت جميع اهالي القرية لتهنئة ام فارس وبينهم المعلم ملحم ليمثل دوره البديع في القصة ، ليقرأ الرسالة ويخبر الوالدة المسكينة بوصول ابنها عن قريب . وبعد مدة كان فارس في بيروت يعانق اقاربه واصحابه ويتجه واياهم نحو القرية حيث العراضات ورائحة البارود والدبكة والرقص والسكر .

الى هنا نقع على تصوير رائع وصبغة فنية محلية نود لو تكون في مؤلفات كل اديب لبناني . ولم يكتفِ الكاتب بوصف الحوادث وتصويرها تصويراً دقيقاً ، انما تنبه لاستعمال المفردات القروية فزادت القصة روعة وجمالاً ، وصبغتها صبغة محلية لبنانية . فكلمات مثل الحلوينه ، والمصطبة ، والنياب ، وكتر خيرك يا ربي ، جمّلت اسلوب القصة . ولكننا نشعر بان هذا القسم ، على الرغم من طوله ، لا يزال مقدمة لشيء ننتظره . ولو توقفنا عند هذا الحد لرأينا في « فارس الشامي » قطعة انشاء وصفية ، لا قصة من قصص تقي الدين . وتبتدئ القصة فنياً عندما وضعت العقدة ، وقد بدأت ام فارس بالتفتيش عن عروس لابنها . واذا ما لاقتها فاجأته بالخبر فرفض ، ولكنه نزل فيما بعد عند ارادتها فتزوج من ادما مرعي . واذا بالنهاية تسفر عن مصرع الوالدة وسفر فارس وانتظار الزوجة الابدي .

لولا هذا القسم الاخير لما كان « لفارس الشامي » تلك الروعة القصصية ، ولما قلنا عنها بانها قصة ، ولو نقصها شيء . هام يدعو لان تكون العقدة في البدء فتدرك قمة التأثير في النهاية . ولكننا نترك هذا البحث هنا ، لنبرهن للمؤلف بان العقدة التي انكر وجدت في مؤلفاته على الرغم منه ، ان في البدء او النهاية وانه لولا هذه العقدة والحوادث التي نعتها بالقشور لكانت قصصه فارغة لا مغزى لها ولا أثر ، وان بلغت ذروة الفن في الوصف والتصوير .

وننتقل الآن الى « جحيم امرأة » ليكون نقدنا اكثر ثباتاً ودقة . وكنا نشك ان نجد في القصة الاولى التي درسنا حادثاً تدور حوله القصة لولا المقاطع

الاخيرة . اما « جحيم امرأة » فكلها قشرة على حد قول المؤلف واما الجوهر فقد ذاب نوعاً ما ، ذلك الجوهر الذي اتخذه تقي الدين مبدأ وكان خيالياً .

« ... » علامات ثم نقط ثلاث . سليم شاب يشغل منصباً في شركة نفط كبيرة ، احب امرأة متزوجة . في الصفحة الاولى ، تظهر لك فعلية الموضوع ، امرأة متزوجة ربطها الحب بشاب ، جلسا يتحادثان هنـاك على صخرة كبيرة تطل على البحر : « وان اقلع عن هواي الا يوم يجفّ الدم في عروقي ويقف خفقان قلبي ... » فـاذا بالنقط الثلاث تنبهك لانتظار الحادث الذي اراد الكاتب ان يزيد تأثيره بالشكل الذي اظهره ، واذا بك تشعر بالثقل الذي يولده فيك ذلك التصريح ، وانت لم تقرأ بعد الا صفحة اولى ، ولم تقع ولا على وصف هام ، فتذكر قول الكاتب ان الجوهر في القصة هو الوصف والتصوير . وهل يريد خليل تقي الدين عقدة اقوى من هذه لتكون محور تآليفه ، عقدة ابعد اثرًا وأشد ألماً من التي وجدت في « جحيم امرأة » ، ليرجـع عن قوله . وكيف بنا نقول بعد ذلك ان الوصف والتصوير هما العنصران الاساسيان في وضع القصة ، واديبنا لم يطبق نظريته مع انه اراد ان يبتدعها ؟ وكانت عقدة قصته في الصفحة الاولى من « جحيم امرأة » .

ورب قائل يدعي باننا انتقينا قصتين تلاغتا في وضعها ذلك النقد الذي جئنا به ، غير اننا لو بحثنا في كل قصة من كتاب « عشر قصص » عن العقدة التي اهملها الكاتب ، لا بل انكرها ، لرأيناها تتململ في سياق البحث ، لا في الحوادث فقط ، انما في اشخاص تقي الدين انفسهم . فشخصية « ساره العانس » قصة كاملة ، لا بل رواية .

وكأني بخليل تقي الدين اراد ان يتمامى عن كل هذا ليفتح طريقاً جديدة في تاريخ قصتنا الحديث ، فترد عليه بقول مارون عبود : « انه لا يستطيع ، وهو لم يكتب الا تسع قصص ، ان يضع قانوناً صارماً للقصة والقصصيين » ، وهو نفسه لم يطبق هذا القانون . ولا نعجب فيما بعد اذا لم تقع في « الاعدام » على تحديد فني للانواع التي ذكرنا سابقاً وانتقدنا وضعها في « عشر قصص » ، اذ ان الكاتب قد تملص منها وادعى فسادها .

غير اننا مهما تمادينا في نقد الوضع الفني في كتابات خليل تقي الدين، فلا نعدم فيها صبغة محلية رائعة حببتها الى قلب المطالع؛ فبدت قصصه على ما فيها من نقص في درس اخلاق بعض الاشخاص، وسير نفسياتهم، وعلى ما في بعضها من خروج عن وضع القصة الفنية، شائقة في قراءتها، جميلة في تصاويرها المحلية الناتئة، سهلة باسلوبها الطري الناعم.

¤

**توفيق يوسف عواد** وتنوعت مظاهر الفن القصصي، فولد في السنين الاخيرة نوع تصوري جميل، الى جانب الذي عمل في حقله تقي الدين وقالوا انه تصويري. هو ما يظهر في قصص توفيق عواد وفي روايته «الرغيف». وقد كان لادبينا رأي خاص في كتابة القصة، كما كان لغيره طبعاً، اراد ان يظهره في كتاباته الاولى ثم انكره عندما كتب الرغيف. كان توفيق عواد يعتقد، باديء ذي بدء، ان كل ما خطته يد فنان وكان للقصص فيه نصيب يحمل اسم قصة. ولكن ما لبثنا ان رأينا «دار المكشوف» تصدر «رغيف» عواد حاملاً تحت عنوانه كلمة رواية. ففكرت، وربما كنت على حق، ان الكاتب تراجع عن رأيه السابق واقرّ بختلف انواع الفن القصصي فقال ان هناك رواية ولعله يقول في ما بعد بوجود الحكاية والاقصوصة وغيرهما... وعلى كلٍ فقد كتب قصصاً ورواية نجتهد في درس بعضها.

جمع توفيق عواد تسعاً من قصصه في كتاب اطلق عليه اسم احداها «قميص الصوف». ونتعمد افضلية الكاتب فندرس هذه القصة، على ما فيها من نقص بيّن، لنقابلها فيما بعد باحدى قصص الكتاب «كهية» مثلاً.

امّ ارملة تنتظر وصول وحيدها مساء عيد الفصح فتعمل على ترتيب المنزل وتذبح له ديك دجاجاتها. يصل مع زوجته عند الساعة الثامنة مساء، فيقضيان السهرة مع العجوز الى ان يسمعوا دقات الجرس فيهبون مسرعين ليرتدوا اثوابهم ويتوجهوا نحو الكنيسة. حوادث خلاف بسيطة بين الام والكنة، تتخلل هذه المقاطع، فاذا بها سرد سريع لا تكوّن عنصراً قوياً في القصة. وينبلج الصبح، فتطلب زوجة امين ان يرجعا الى بيروت، واذا بالام تهدي الى ابنها قميصاً من

شغل يدها ، ليكون هذا القميص عنواناً لقصة عواد . راجعت القصة مرتين وثلاثاً لاقع على حادث هام يملك حواسي فلم اجد الا ما تبعثر هنا وهناك من خلاف بين الام والكنة واوصاف متشردة ربما لم يكن لها علاقة جدية بالموضوع . وبحثت عن تسمية القصة « بقميص الصوف » فرأيت البحث عبثاً ، فرجعت عندئذ الى نفسي وذكرت محاضرة الكاتب في الفن القصصي واذا به على خلاف معنا عــلى وضع القصة الفني ، واذا بالحوادث تكوّن عقداً متفرقة ضاع بها اثر «نكرزات الصوف» وضاعت معها القصة .

قلنا في المقدمة ان القصة اذا فقدت حادثاً هاماً بليغ الاثر لم تكن بالقصة خاصة اذا لم تتجه الاوصاف والحوادث التي تأتي عــلى الهامش نحو ذلك الاثر الذي يريد الكاتب احياءه في نفس القارئ. فلو كانت قميص الصوف محور قصة عواد لتوجب عليه ان يأتي على ذكره في بدء قصته وان يوجه حوادث الخلاف بطريقة ما نحو الموضوع ليجمل القارئ فيا بعد يتناسى هذا حتى يفاجئه بالخاتمة فيكون لها الاثر الفعال في نفس المطالع . وعــلى الرغم من طول القصة لم ارَ الكاتب موفقاً لا في اوصافة ولا في تصوير الاشخاص . لقد اضاع وقته في وصف انتظار الام مثلاً ، وترك ما هو اساسي في موضوعه كدرس اخلاق الام والكنة ليظهر اصل الخلاف بينهما . واذا ما اتى عــلى وصف الاخلاق ام امين البسها حلتين متناقضتين لا تتناسبان مع وضع القصة : في البدء ، ام امين ، ام عجوز يملك اعصاب القارئ حبهــا الاموي ويهزه ، ثم يظهرها الكاتب بمظاهر شهوة قتالة تحرمها النوم طوال ليلتها ، ويا ليت ، بل تدفعهــا لأن تترك غرفتها وتذهب الى حيث ينام الزوجان لتتحقق فيما اذا كان ولدها نائماً بقرب زوجته ، تتحقق هذا على ضوء البروق . . . هذا التنــاقض في اظهار اشخاص عواد في « قميص الصوف » خفف من اثر قصته فخابت آمالنا ، لو لم نقع على غيرها فنجد فيها ما اردنا بل ما يريد الفن القصصي .

رفرف توفيق عوّاد صغيرًا حول عش قصته الصغير . وسرعان ما انفسح له المجال ليرى الكون بكل ما فيه ويشعر ان هذا الكون ملكه وخاصته . يجول بخياله الدنيا ليرى فيها العجائب ويتنقل في قصصه بين طبقات المجتمع على

اختلافها ، فتراه مع الاولاد يستشهدون الكلاب في بجرصاف ، وتراه في الاندية يجرع الخمرة بين دلال راقصة وغنج اخرى ، وتراه بين مظاهر الحيـاة جمعاء . وفتش توفيق الاديب في كل هذه المراحل عن حوادث استهوتـه وتركت في اعماقه اثراً بليغاً ، فلم يقع الا عـلى عهد يريد ان ينساه لولا ذكريات الجوع والمشقة ، الا على برهة تحبس عليه انفاسه لو مرت بخيلته ليتصور توفيقاً الصغير واقفاً بالقرب من والديه « يرفع انفه حيناً بسؤال الى والده ويشير باصبعه حيناً ويصفق مسروراً حيناً آخر » . يصفق لجنود يدخلون لبنان دخول الفاتحين سنة ١٩١٤ لا لان لبنان بلد عدوّ ، بل لان فيه طموحاً للحرية والاستقلال ، يصفق لقوم حرموا كل لبناني رغيف الخبز فجاع وحرموا البلاد رغيف الحرية فجاعت ايضاً . وكأني بالاديب قد جمع بين أثر جوع لا يزال يذكره وجوع قد استفاق عليه الآن فراح يدوّن حوادث روايته «الرغيف» .

والرغيف روايـة ذات مدخل وخمسة فصول : التربة ، البذر ، الغيث ، السنابل ، والحصاد . ولكل من هذه الفصول قيمة معنوية لم يأت الكاتب على تسميتها حباً بمفرداتها انما جعل منها عناوين حيّة لروايته . ويدور الموضوع حول حوادث الحرب الكبرى في لبنـان وبعض الاقطار العربية المجاورة عـلى ان المسرح الاولي ساقية وادي المسك في بجرصاف .

رواية ملأى بالحوادث الشائقة المنتقاة ولا ارى توفيق عواد غيرَ واقع على موضوع يأخذ بلباب القـارئ اللبناني فيرى فيه صوراً حية لامة اشتاقت افواه ابنائهـا الى رغيف من الخبز تمضغه أسنانهم ، ونفوسهم الى رغيف الحريـة ؛ ويشهد القارئ العربي بدء حياته القومية يوم استشهد الابطـال عـلى الاعواد وفي ساحات الحرب .

والرغيف رواية جمعت في عرضها الفني اكثر العوامل الاساسية التي جعلت منها اقرب المحاولات الروائية في فننا القصصي الحديث . حوادث عديدة ومختلفة تتقارب وتتجانس لتكوّن وحدة في الظهور فكأنهـا تتجه في كل فصل نحو عنوان الفصل ، وتتجه ايضاً هذه كلها نحو موضوع الرواية : الرغيف فالترتيب القائم بين التربة والبذار والغيث . . . ينقلك من مرحلة الى أخرى فتتصل هذه

بالاولى وتهيء مجالًا لغيرها ، فتعدو ، وتعدو الى ان تصل الى النهاية ، الى حيث السنابل الناضجة فالحصاد .

هذا من حيث التنسيق الانشائي ، اما من حيث مادة هذه الفصول فقد ابدع الكاتب في تصوير الحوادث لوحات ترى فيها الحقيقة الواقعة حتى ولو كانت بعيدة عن دقة الوصف في اظهار النتوءات الفنية ، فكأنك امام شريط سينمائي تتابع مناظره لا بعينيك فقط بل بفؤادك وكل جوارحك ، فتتقبض اعصابك اذا ما مرت تلك الصور المرعبة التي مسحها الكاتب مسحة خيالية فنية فترى جماعات الحرب الكبرى ابناء وطنك ، جياعاً يفتشون عن حبات الشعير بين روث خيل الاتراك ، وترى ورده كسار في قبو منزلها ملقاة بقرب ابي زيد تقضم ساقه وتأكل من لحمه ميتاً ، ولطالما أكل منها حياً .

وتنتقل من مجال الرعب والاشمئزاز الى ناحية الكفاح ، فتسمع اصوات الاحرار ينادون بالحرية فكأن اعصابك قد بدأت تهدأ ، وكأن بالكاتب قد هيأ مجال الانتقام : وهنا تتحقق مقدرة الكاتب في ايحاء الصور واستعجال المشاهد واستفزاز عواطفك لتتكلم عن اشخاص الرواية او تدافع عنهم وكأني بك تجاوب عن سامي عندما ردّ على رئيس دائرة التحقيق في عاليه بقوله : « انت كلب » .

ولا اريد ان يكون مجيئي عرض الرواية الفني اكثر طولًا انما كنت اود لو اكتفى عواد بلبنان مسرحاً لروايته، لكان العرض اكثر تماسكاً وترابطاً ، ذلك ان الانتقال بين لبنان والبادية قسم الرواية قسمين فظهرت حوادث الثورة العربية العامة ثانوية في قصص الرغيف . ولو شئت ان تراجع الفصول الثلاثة الاولى لشعرت بانها متماسكة حتى اذا ما نضجت السنابل وحان الحصاد بعدت الشقة وانقسم المسرح الى قسمين بعيدين عن الوحدة التي طالما جمعت حوادث الرواية . ولعل في هذا الانفصال اثرًا واضحاً لخيال عواد الخصب ، فعدا عن انه يختلق مواقف لا تحدث الا في مخيلته وعلى صفحات الكتاب ، فهو يعتمد الى حد اقصى على ذكاء القارئ وقوة خياله

اما نوع الرواية الفني فهو اقرب الى التصوير منه الى التحليل. وقد لا نعيب على المؤلف قلة التحاليل النفسانية لانه خاطها عند الحاجة بالتصوير الفني عندما وصف لنا زينة في عاليه بحيرتها وقلقها وهي الغريبة بتلك الديار الملأى باعين الاعداء المترصدة وايدي السماسرة المتهنين. ونرجع هنا لنذكر من جديد صفة الايحاء عند المؤلف وقد يطلب من مطالعه مساعدة في ان يتخيل صور اشخاصه اذا ما قرأ اعمالهم.

ونختم القول بانه لو كانت لغة الرواية اكثر نقاوة لزادت قيمتها الادبية واحتلت مركزاً مرموقاً في المحاولات الروائية.

¤

احمد مكي

واذا ما تابعنا بحثنا في سلسلة المدارس الادبية التي عرفناها في هذه الحقبة الاخيرة، نقع على مذهب جديد في الادب القصصي الحديث، وعلى نوع جرب ان يقوم باعبائه فتى في مقتبل العمر، على نوع تلتبس رمزيته بالغموض، حمل لواءه احمد مكي، ونشره في كتابين: « ليلة القدر » « والنداء البعيد ».

الاول مجموعة فصول، اما الثاني فرواية. قلت مجموعة فصول ولم اقل قصصاً او اقاصيص لان « ليلة القدر »، و« العاصفة »، و« السراب »، لم تستوفِ ما هو مشترط في وضع القصة فنياً. ونرجع مرة اخيرة الى نخوض البحث فنطالب احمد مكي بمبدأ التأثير الهام والاخراج الفني الصحيح علّه يظهرهما لنا في «ليلة القدر» و«العاصفة» دون ان يكون بنفسه احمد مكي.

ليلة القدر: راهب وحوريتان، مقاطع غزل وغموض... الخ.

العاصفة: بحر، نزهة سلفيا وأحليا، هياج الماء يطغى على الفار فيفترقان.

حرت في امري فلم اجد حلاً، لو لم اقع على احد اعداد مجلة « المكشوف » فارى فيها عنواناً: « ليلة القدر بين مؤلفها ونعيمه والريحاني ». وضمّ المقال اموراً كان على الاديب ان يذكرها في مقدمة كتابه « والتي اذا جرّد منهـا بات خلواً من اي ميزة ادبية ».

قال: « ان غاية الكتاب القصوى ليست الفن ».

وقال ايضاً: « اني اجيبكم اني لم ألتزم الاصول المفروضة على كاتب القطعة المسرحية ولا الاصول المفروضة على كاتب القصة الواقعية ولا اية اصول مفروضة على كاتب ايّ نوع ادبي . اني لم التزم اصولاً لاني لا اعرف تلك الاصول.»

فتحققت ان لا قيمة لهذا الكتاب اذا تعرى من الاحوال الشخصية والتأثيرات الغامضة التي اعترت المؤلف في برهة ما من حياته ، فتراجعت ، وما النفع من دراسته ما زال يبعد كل البعد عما اريد ، لا بل عما يتطلب بحثنا في اصول الفن القصصي . فتركته الى حين سمعنا نداء المؤلف من جديد « نداء البعيد ».

والنداء البعيد رواية اتخذت لها مسرحاً صوفر حيث التقى سليم بفتاة افرنسية فتحابا ، وتعاهدا على الزواج . غير ان دين كل واحد منهما حاجز في سبيل ما اراد . يلتقيان في بيروت بعد انقضاء فصل الصيف ، وعلى الرغم من كثرة الحواجز تبقى سلفيت امينة على ما قطعت من عهود حتى ينكشف سرها فتجبرها خالتها على السفر الى فرنسا ، الى حيث التعاسة والشقاء. بقرب والدين لا يتفقان ابدًا ، وأخ مريض واخت تعيسة.

يقول بعضهم ان الكاتب قد حاول حلّ احدى العقد الاجتماعية الهامة ، ويقول آخرون انه لم يرَ في هذا الحادث الا موضوعاً لروايته ، ولم يرَ بالفكرة الا عرضاً وعلى سبيل الطرافة . ومهما يكن من أمر ، فالرواية في وضعها القصصي تتم باخبار حبيبين لم تطل احلامهما ، وتعرض مشكلة اجتماعية بعيدة الاثر في حياة امتنا . ولعل عرض هذه المشكلة قد جعل للرواية موضوعاً لم يطرقه احد في ادبنا الروائي باسلوب احمد مكي . فحب سلفيت لسليم شيء طبعي اعتيادي مهما فكر الكاتب بتنسيقه وترويقه ؛ غير ان الناحية التي انحرفت « بالنداء البعيد » نحو الطرافة هي تلك الحواجز التي منعت حبيبين من الزواج ، منعتهما باسم الدين.

جميل ان نرى هذه الجرأة من احمد مكي يعالج اكثر الامراض الاجتماعية صعوبة ، وجميلة هي الطريق التي عالج بها المؤلف ذلك المرض القتال .- خلاف بين فضيلتين من الشعب ، خلاف بين الافراد ثم بين حبيبين ؛ ولم يرتكز هذا

على انه، وقد طال البحث، فقد كان من المستحيل الا ان تنحصر دروسنا في نماذج قليلة كما فعلنا . وقد أهملنا بعض المؤلفات التي تبعد بعضها عن الفن في كتابة القصة ويظهر البعض الاخر اعتيادياً مبتذلاً.

لقد اهملنا درس كتاب « كان ما كان » لمخائيل نعيمه، عـلى كونه من ادبائنا الكبار وله فضل بالغ بانه اول من كتب، مع جبران، في الفن القصصي العصري، وحاول بعث هذه الناحية لمّا كان ادباؤنا الحاليون بعد في احلام الطفولة وامال الشباب. الا اننا رأينا في قصصه، ما رأيناه في قصص جبران، من الضعف الفني في التأليف، ومن الانصراف عن الاخذ باصول هذا النوع الادبي. وان نكن قد خصصنا جبران ببعض البحث فلأننا شعرنا، في محاولاته القصصية، بتأثير قوي يبثه من خلال سطوره، في نفس القارئ باسلوب جديد لم يعرفه الادب الحديث من قبله.

ولا بد من كلمة وجيزة ننهي بهـا هذا البحث متفائلين بتقدم انواع القصص في ادبنا كلما ازداد احتكاك ادبائنا باصول هذا الفن عن طريق الادب الغربي.

ولا يخفى اننـا، مع كل الجهد الذي بذله كتابنـا، لا نزال في طور المحاولات، محاولات يقرب بعضها من الكمال الفني. فروايات «لماذا» و«الرغيف» و« النداء البعيد »، وقصص مثل «توها»، وحكايات مثل «على عهد الامير» لجديرة بان تقدر قدرها الكافي، لانها احتفظت باكثر شروط القصة الاساسية في عهد انبثاق القصة في الادب اللبناني.

ولا شك ان هذه البوادر تبشر بمستقبل زاهر للفن القصصي وتفتح باب الامل لادباء حاولوا الكتابة في مختلف الفنون القصصية، فتكلل مؤلفـاتهم بالظفر، وينتهون حقاً الى وضع ما نسميه «رواية» او « قصة » او « حكاية » تختلف الواحدة عن الاخرى بكل ما فيها في الوضع والاخراج.

# ثياب الوشي

بقلم حبيب زيات

لو قُدّر للحضارة العربية من يروي اخبار صناعاتها وفنونها التي تلقّنها مَهرَة الصناع البلديين في الشام ومصر والعراق عن حذّاق الروم والفرس، لكان لنا في وصف بدائع النسيج وحده ما يجدر ان يُخطّ باقلام الفخر على صفحات الدهر. وقد بلغت منسوجات الشرق اقصى غايات الشهرة في الغرب واقبل الملوك والاغنياء ورجال الدين على اقتنائها والمباهاة بها والتجمل بمحاسنها، حتى ندر في القرون الوسطى في اروبة ان لا تكون خزانة من خزائن القصور والبيَع والاديار مزدانة ببعض طرائفها؛ ولا تزال منها الى اليوم بقية محفوظة بغاية الحرص والاعجاب في بعض اصونة ذخائر المدن والكنائس في فرنسة.

ومن هذه المنسوجات الفائقة التي افتنّ العمال قديماً في حياكتها وتلوينها ثياب الوشي، وقد سبقت الاسلام. ولما افتتح عمرو بن العاص مصر وجد القوم يتجملون بالوشي، فبادر الى الاقتداء بهم. وقد وصفه بعض من رآه وسمعه يخطب على المنبر فقال: «رأيت رجلاً ربعة قصد القامة وافر الهامة ادعج ابلج عليه ثياب موشّاة كأن به العقيان»[1]. ولسوء الحظ لم ينته الينا اقل وصف للوشي قبل الفتح او بعده سوى كلمات وجيزة بدرت عَرضاً من افواه الشعراء والكتاب كقول ياقوت: «الوشي نوع من الثياب المنسوجة من الابريسم»[2]. وفي هذا التفسير من القصور والغموض ما لا يزيد علماً ولا يكشف سرّاً. وفي كتب اللغة آثار ضئيلة من اوصاف الوشي منها «المضرَّس» لنوع فيه صور كأنها اضراس، «والمضلَّع» للمنقوش بمثل الضلع، «والمخلَّب» للكثير التلوين، «والكذّابة» لثوب يُنقش بالوان الصبغ كأنه موشيّ. قال اسحق الموصلي وقد سأله المأمون عن مخارق وعلّوية من المغنيين: «ما هما عند القديم الا مثل الكذّابة عند الوشي الاسكندراني»[3]

١) فتوح مصر واخبارها لابن عبد الحكم ١٤٠

٢) ارشاد الاريب ٧ : ٤٢٥

٣) السادس من كتاب بغداد لابن طيفور ٢٢٦

ويقال للصانع الذي يشي الثوب الواناً « المُشمج »(١).

ومن هذه اللمع يتحصل ان الوشي كما يدل عليه لفظه كان كثير الالوان ولذلك قال المعتمد لعبدالله بن خرداذبه ، وقد وصف لـه العود والملاهي : « كلامك كمثل الثوب الموشي يجتمع فيه الاحمر والاصفر والاخضر وسائر الالوان »(٢). واكثر ما كانت تنقش فيه اشكال الازهار والرياحين ، وهو ما اشار اليه عبدالله بن المعتز بقوله :

وعلى الارض اخضرار واصفرار واحمرار
فكأن الارض وشي بالغت فيه التجار
نقشه آس ونسر ين وورد وجمار(٣)

ونظيره قول كشاجم في دير يونان :

وكأن المنثور حلة وشي مثلها ما حوت تخوت التجار
في طراز الربيع حيكت ولكن غمّت وشيها يد الامطار
اقحوان وسوسن حسن النو ر وشيح منمنم وجمار(٤)

ولا يخفى جمال مثل هذه الاثواب التي اجتمعت فيها محاسن الطبيعة وزخارفها وقُلّد فيها اجمل النباتات والازهار. فلا بدع اذا افتتن بها الامويون وولعوا باتخاذ كل البستهم منها ، فتعددت اعمال الوشي في ايامهم ، وانتشرت في المدن والامصار ، وكثر الاقبال عليها بين الناس على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم. ويظهر ان احسن الوشي كان وشي الاسكندرية ، ولا عجب فان هذه المدينة اشتهرت قديماً بكثير من منسوجاتها الفائقة حتى كانت تحمل منها الى كل الامصار وكان وشيها يضرب به المثل في الحسن والاتقان . قال اسحق بن ابرهيم الموصلي : قلت في ليلة من الليالي ( بيتين من الشعر ذكرها ) فلما اصبحت انشدتها الاصمعي فقال : هذا الديباج الخسرواني هذا الوشي الاسكندراني(٥) . ويستدل من رواية

١) معاجم اللغة كاللسان والتاج واساس البلاغة .
٢) مروج الذهب بهامش الكامل ١٠ : ٣٤
٣) الاغاني ٩ : ١٤٥
٤) الديارات للشابشتي خزانة برلين ١١٣
٥) الاغاني ٥ : ٧٥ – ٧٦

السيوطي ان وشي الكوفة كان يضارع وشي الاسكندرية ، اذا كان لا يفوقه وهو قوله : بالاسكندرية يعمل الوشي الذي يقوم مقام وشي الكوفة[1] . ومما يشهد بتعدد معامل الوشي بالكوفة وجلالة التجارة به فيها انه لما نهب ابو طاهر القرمطي الكوفة سنة ٣١٢/٩٢٤ « كان في جملة ما حمل اربعة آلاف ثوب وشي »[2] . ولما عدد ابن الفقيه خصائص البلاد ذكر بينها الوشي الكوفي.[3]

وبعيد جداً ان لا تكون دمياط ودبيق وشطا وتنيس المدن التي اشتهرت بثيابها ومنسوجاتها الفائقة قد شاركت الاسكندرية في صناعة الوشي . وقد نص ابن واضح على تنيس فقال : « مدينة قديمة تعمل بها الثياب الرفيعة الصفاق والرقاق من الدبيقي والقصب والبرود والمخمل والوشي واصناف الثياب . »[4]

ولليمن منزلة عليّة في فنون الحياكة . وامتازت صنعاء فيها بصناعة الوشي حتى ضرب بها الامثال في الغرب فقال الاديب ابو عمرو احمد بن دراج القسطلي من قصيدة له في منذر بن يحيى وورود صاعد اللغوي :

واهدت لهُ بغداد ديوان علمها ... هدية من والى وتحفة من حيّا
فكانت كمن حيّا الرياض بزهرها ... واهدى الى صنعاء من نسجها وشيا[5]

وقال بعضهم في وصف مدائحه :

شغلتك عن حسن السماع مدائح ... حسنت فما تنفكّ تطرب سامعا
جاءتك مثل بدائع الوشي الذي ... ما زال في صنعاء يتعب صانعا[6]

ومن المدن الفارسية التي ينسب اليها الوشي فسا وبيا « طراز الوشي المرتفع الذي ليس بسائر الآفاق كهو اذا كان مذهباً »[7] واذا كان ساذجاً فكالذي بجهرم واصبهان . »[8] والعماد الاصبهاني في وصف الابله البغدادي الشاعر : « عذب اللفظ

١) حسن المحاضرة ٢ : ١٩٣
٢) تجارب الامم لابن مسكويه ، طبعة مصر ، ٥ : ١٤٦
٣) كتاب البلدان لابن الفقيه ٥٠
٤) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي ، طبعة ليدن ، ١٣٦
٥) الذخيرة لابن بسام ١ : ٥٥
٦) احسن ما سمعت للثعالبي ، طبعة مصر ، ٤٤ — ٤٥
٧) المسالك والممالك لابن حوقل ٢١٣
٨) مسالك الممالك للاصطخري ١٥٣ و ١٩٦

ارق من النسيم السحري واحسن من الوشي التستري »[١]

واشهر من كان مغرى بثياب الوشي من الامويين لا يؤثر ان تقع عينه على غيرها بين اهله وبطانته وحاشيته وخدمه سليمان بن عبد الملك الخليفة الشاب ، كما كان يدعو نفسه ، قال المسعودي :

« كان سليمان بن عبد الملك يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشي وفي ايامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ولبس الناس جميعاً الوشي جباباً واردية وسراويل وعمائم وقلانس وكان لا يدخل عليه رجل من اهل بيته الا في الوشي وكذلك عمّاله واصحابه ومن في داره وكان لباسه في ركوبه وجلوسه وعلى المنبر وكان لا يدخل عليه احد من خدمه الا في الوشي حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه في صدرة وشي وعلى راسه طويلة وشي وامر ان يكفّن في ثياب الوشي المثقلة ».[٢] واقتدى به امير مصر احمد بن طولون فكُفِّن في الوشي.[٣] وجوهر القائد « فكُفِّن في سبعين ثوباً ما بين مثقل ووشي مذهب »[٤] وفعل كذلك وزير المعز لدين الله يعقوب بن كلّس « فكُفن في خمسين ثوباً من وشي وشَرْب ديبقي منها ثلاثون منسوجة بالذهب »[٥].

وجرى الوليد بن يزيد على نمط سليمان فكان يتشح دائماً بثياب الوشي . ولما غنّاه مرة عطرد بعد اشخاصه من المدينة قال عطرد : « فوالله ما اتممته حتى شق حلة وشي كانت عليه لا ادري كم قيمتها فتجرد منها كما ولدته امه

---

١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، طبعة مصر ، ٢ : ٢٥

٢) مروج الذهب ٧ : ١٠٨ – ١٠٩ ويراد بثياب الوشي المثقلة « المنسوجة بالذهب » وهذه اللفظة لم ترد بهذا المعنى في المعاجم وهو ما فسّرها به المقريزي في الخطط ( ٣ : ١٠ ) ومما يؤيد هذا التفسير قول ابن مسكويه : « خلع عليه خلع منادمة وكانت مثقلة بالذهب » (تجارب الامم ٥ : ٨٥) ولا شك انها مأخوذة من قولهم: « كل شيء نفيس مصون فهو ثقل .» وفي الاغاني : « ثَبَت ما في الخزانة من الثياب المثقلة الاسكندرانية والهاشمية » (٩ : ٦٧) وفيه ايضاً : « رأى المعتز وعليه وشي مثقل وجوهر » (٢١ : ٦٧) وفي الديارات للشابشتي : « جلس على سرير الذهب وعليه ثياب الوشي المثقلة » (١٦٩)

٣) سيرة احمد بن طولون للبلوي ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ، رقم ٣٤٢

٤) الخطط ٢ : ٢٠٧

٥) الخطط ٣ : ١٠

والقاها نصفين . . . فلما كان من غد جاءني رسوله في مثل هذا الوقت فاحضرني فلما دخلت عليه قال لي : يا عطرد غنني :

ابذهب عمري هكذا لم أنل بها مجالس تشفي قرح قلبي من الوجد

فغنيته اياه فشق حلة وشي كانت تلتمع عليه بالذهب التماعاً احتقرت والله الاولى عندها ثم القى نفسه في البركة . . . واخذت الحلة فوالله مـا قال لي احد دَعها »[١] وغنّى ابو كامل الوليد بن يزيد ذات يوم « فطرب الوليد وخلع عليه حتى قُلَنسِية وشي مذهبة كانت على رأسه فكان ابو كامل يصونها ولا يلبسها الا من عيد الى عيد .»[٢] وحدّث حكم الوادي من المغنين ايضاً قال : « ادخلني عمر الوادي على الوليد بن يزيد وهو على حمار وعليه جبّة وشي وخفّ وشي»[٣] وكان الوشي في ايام الامويين يخلع على النساء في مجالسهنّ وعلى الوصفاء . ولما جيءَ بنصيب الشاعر الى الامير عبـد العزيز بن مروان وهو وصيف نوبي ابن نوبيّين ، قال عبد العزيز : « تقوّموا هذا الغلام . فقالوا عشرة عشرون ديناراً فقال : « ردّوه فاخرجوه ثم ردّوه في جبة وشي ورداء وشي »[٤] . « ودعت عائشة بنت طلحة يوماً نسوة من قريش فلما جئنها اجلستهن في مجلس قد نُضِّد فيه الريحان والفواكه والطيب والمجامر وخلعت على كل امرأة منهن خلعة من الوشي والخز ونحو ذلك »[٥] .

وتتابع الامويون على مثل هذا الشغف بالوشي حتى اذا قتل السفاح من قتل منهم « امر بهم وجرّ بارجلهم فألقوا على الطريق وان عليهم لسراويلات الوشي والكلاب تجرّ بارجلهم»[٦] .

وما لبث العباسيون ان اقتنوا بهم في التأنق والتجمـل بالثياب فكان السفاح اول من لبس الوشي منهم . واراد يوماً ان يستشير ابن هبيرة المخزومي

---

١) الاغاني ٣ : ٦٨ - ٦٩
٢) الاغاني ٦ : ١٤٤
٣) الاغاني ٦ : ٦٥
٤) الاغاني ١ : ١٣٢
٥) نهاية الارب للنويري ٤ : ٢٦٩
٦) الاغاني ٤ : ٩٥

في من يوليه العهد من بعده فاستدعاه الى مجلسه قال ابن هبيرة : « رفع الستر ودخل وثبتُ في مجلسي فاقام ملياً ثم خرج في ثوبي وشي ورداء وجبة فما رأيت احسن منه ومما عليه . »[١] ولا شك ان المنصور لم يقتدِ به في لباس الوشي لانه فيما قيل « كان يلبس الخشن وربما رقع قميصه. »[٢] وعاقب مرة احد كتابه وهو محمد بن جميل وامر بطحه « فلحظ سراويله فاذا هو كتان فانكر ذلك انكارًا شديدًا وامر به فبطح وضربه خمس عشرة درة ، وقال : هذا جزاؤك على سوء اختيارك في لبس هذا السراويل فلا تعاود »[٣].

وفي زمان المهدي والهادي عمّ لبس الوشي الرجال والنساء. وكان الشاعر سلم الخاسر «يأتي باب المهدي على برذون قيمته عشرة آلاف درهم ولباسه الخز والوشي . »[٤] ووصف ابو نواس جارية رآها بباب اسماء بنت المهدي فقال : « خرجت وعليها قباء وشي منسوج بالذهب وسراويل وشي اخضر منسوج بالذهب »[٥] ولابي العتاهية في جواري المهدي بعد موته :

رُحْنَ في الوشي واقبلنَ عليهن المسوح[٦]

وازداد الوشي انتشارًا في خلافة الرشيد . ولما اعرس بزبيدة « كان يخلع على الناس خلع الوشي المنسوجة ... واحضر نساء بني هاشم وكان يدفع الى كل واحدة منهن كيساً فيه دنانير وكيساً فيه دراهم وصينية كبيرة فضة فيها طيب ويخلع عليها خلعة وشي مثقل . »[٧] وكان شديد الكلف بالوشي قيل انه « هب ليلة من نومه فدعا بحمار كان يركبه في القصر اسود قريب من الارض فركب وخرج في دراعة وشي متلثماً بعمامة وشي ملتحفاً بازار وشي. »[٨] ولما توفي كان في جملة ما خلفه « من الحلل الموشية اليمانية وغيرها المنسوجة بالذهب الف وثمانمائة

١) مروج الذهب ٨ : ٢٦

٢) الفخري لابن طقطق ، طبعة مصر ١٤١٠

٣) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ١٥٢

٤) الوافي بالوفيات للصفدي ، خزانة باريس ٢٠٦٥ ، ص ٢٥٠

٥) اخبار ابي نواس لابن منظور ١٦٦ — ١٦٧

٦) الفخري ١٦٣

٧) الديارات للشابشتي ٦٧

٨) الاغاني ٥ : ٣٠

# معرض الفنون الجميلة

## في المتحف اللبناني

بقلم رشدي معلوف

اكون معتدلاً في تفاؤلي اذا قلت ان النهضة التصويرية التي تتجلى طلائعها اليوم في لبنان ، بالغة ، ولا شك ، في السنوات القليلة المقبلة ، مستوى النهضات الفنية . ففي التصوير وحده ، دون سائر الفنون ، نسير اليوم على طريقة علمية تقدمية تتفق مع روح العصر . وامكانياتنا الطبيعية وافرة والحمد لله . فالتنوع في طبيعة ارضنا ، من اختلاف الوان واشكال وابعاد ، والتنوع في حياتنا ، وكذلك التنوع في مجاري ثقافتنا ، تضاف اليها مواهبنا الجمالية ، واستعدادنا للعمل الدقيق ، واخذنا الاصول عن مصادرها في الغرب ، كل ذلك لما يدعوني الى القول بان النهضة تبشر بالخير . . .

ولقد اتى المعرض الذي اقامته وزارة الفنون الجميلة للتصوير اللبناني في المتحف اللبناني دليلاً على صحة ما اقول ، فالمصورون اللبنانيون العارضون فيه ، من احياء واموات ، يمكن اعتبارهم مصورين اوربيين ، ومعاصرين ايضاً ، مع طابع لبناني واضح .

واذا كان داود القرم لم يؤم اوربة لدرس التصوير على اصوله الا من نحو قرن ، فذلك لا يعني اننا متأخرون عن النهضة التي وجدت في اوربة اربعة قرون . . . لان ما يمكن ان يأخذه طالب الفن اليوم من معاهد التصوير الاوربية هو خلاصة ما اعطته النهضة من تحسينات في علم الفن . فاستعمال الالوان وفهم طبيعتها ، والتخطيط ، وعلم التشريح ، وعلاقة الشكل بالمعنى ، لم تكن عند ليوناردو دافنسي ، على فضله في اكتشاف اكثرها ، ولا عند رافائيل وميكال انجلو ، على فضلها ايضاً في اكتشاف بعضها ، لم تكن اوضح ولا ارسخ مما هي عند داود القرم او عند خليل الصليبي . . .

ولعله من حسن الحظ للدول الناشئة وللنهضات التي لا تزال في طفولتها ، ان تكون هنالك حقول للفن ما برحت في طور تطورها ، كالتصوير مثلاً ، لكي يتسنى لها ان تشعر انها تسير مع سواها على قدم المساواة ... ولعله من حسن الحظ ايضاً ان نكون قد تأخرنا قليلاً عن اوربة في مماشاة النهضة التصويرية لكي لا نسرع في السير اكثر مما يجب ان نسرع ، فنبلغ من التطرف في التطور ما بلغته اوربة في الحقبة الاخيرة بين الحربين ، فانقطعت عن الكلاسيكية ، وانقطعت عن الواقع وعن الخيال الصحيح ايضاً ، وكادت تنقطع عن الجمال ، لولا بقية باقية في نفوس فنانيها من غاية الفن الوحيدة التي هي خلق الجمال الانساني .. اما لبنان ، فلم ينقطع يوماً عن الكلاسيكية ، ولقد استطاع ، رغم المغريات بعد الحربين ، ورغم احتكاكه بذلك التطرف السهل الكثير الاغراء ، ان يحافظ على تعلقه بالكلاسيكية ، وان لا ينحرف عنها ، وان لا يضيع غاية الفن .وذلك يعود لاسباب لا مجال لتعدادها الآن ، الا ان الهام هو اقرار نتائجها ، واقرار ما يمكن ان يترتب على نتائجها من مجد . فانا اعتقد ان لبنان هو البقعة الوحيدة المؤهلة في هذه الفترة من جنون الارض ، للمحافظة على التراث التصويري كما ارادته سنة التطور . ويكون شأنه في ذلك شأن الاديرة في حفظ الفلسفة في القرون الوسطى ، ويكون فضله على العالم فضل اولئك الرهبان .

هذا استطراد ، فلأعد الى موضوعي ، الى المعرض الذي اقيم في هذا الشهر ، فعرض فيه احد عشر فناناً لبنانياً ، مثلوا تطور الفن اللبناني منذ ان اصبح فنّاً الى اليوم ...

ولا ادري اذا كان من المستحسن ، او من المفيد ، ان ابسط في الكلام عن الصور التي عرضت ، والحديث عنها لا يجدي الا وسط المعرض ، عندما يكون باستطاعة القارئ ان يطبق نظريات التقدير والنقد على اشياء محسوسة ، يستطيع هو ايضاً ان يساهم برأيه فيها ، فيكون التفاعل بين الناقد والمتذوق اجدى لمصلحتها ومصلحة الفنان ايضاً ...

ولكن ذلك لا يمنعني من الادلاء برأي يتعلق بالفنانين انفسهم ، قد يساعد

القارئ في تكوين فكرة واضحة الى حد ما عن المستوى الفني في لبنان ، كما قد يساعده على تذوق الصور بعد ان يكون قد استحصل على مفتاح جديد للتذوق هو معرفة صاحبها :

**داود القرم** فداود القرم وهو اقدم الفنانين اللبنانيين الذين تعلموا الفن على اصوله في اوساط الفن الاوروبية ، مصور كلاسيكي الى ابعد حدود المحافظة على التراث ، جمع بين محاولات ليوناردو دافنسي لتجسيد المعنى، ومحاولات رافائيل لتجسيد الروح، مع مراعاة للقواعد الثابتة في الحالين ، فأتى فنه إضافة لبنانية حلوة الى ثروة « النهضة » .

**خليل الصليبي** وخليل الصليبي ، على تشبثه هو ايضاً بالكلاسيكية فيما يتعلق بالاخراج ، قد حاول الخروج الى الجدة في الموضوع ، مع تشديد على استهداف الجمال والتأثير ، باللون حيناً وبالموضوع احياناً ، فوفق بخلق طابع خاص يميز انتاجه عن انتاج سواه .

**جبران خليل جبران** اما جبران فتنوعه في الفن اوسع من ان اشمله في بحث موجز اراعي في تقسيمه النسب بين فنان وفنان . فدنيا جبران دنيا خاصة ، غنية بكل شيء ، وخاصة بالتأثير الجمالي السامي الذي تتركه عند متذوقيه ، دون ان يستطيعوا ادراك الاسباب التي ادت الى ذلك التأثير . فلقد عاش الجمال الى حد جعل جو تصويره فوق مستوى اجواء الفن العادية . تضاف الى ذلك حذاقة في الاخراج يستغرب الناقد ان يكون جبران قد اعارها ذاك الاهتمام ! بيد ان الناقد لا يستطيع الا ان يقف عند ذلك التعدد في مجاري التأثير ، بين ثقافة غنية ، ومواهب منوعة ، وحياة صاخبة ، تعمل كلها معاً ، ومع غيرها ايضاً ، في اخراج مبتكر ملهم ، على خلق الجو الجبراني العالمي الساحر .

**حبيب سرور** وعندما نصل الى حبيب سرور، تجابهه كلاسيكية في الاخراج ، لو ساندتها في الموضوع قوة من نوعها ، لجعلت لنا من حبيب سرور قمة عالمية في فن التصوير . ولكن هذا الفنان قد فاته ، على ما يلوح لي ، امر الغاية الجمالية القصوى من الفن ! فتفنن اكثر مما استهدف

اشباع الشوق الانساني الى الجمال .

**مطاروف فاضل** ويكاروف فاضل ، المصور الشاعر ، امكانيات لا يعرف مداها غير محبيه ، وانا منهم ، فلقد كانت لهذا الشاب نفس حساسة متفتحة عاقلة متواضعة تحمل للتصوير اجمل الوعود ! وفي المحاولات القليلة ، التي سمح بها عمره القصير، تدليل على ما اقول .

**يوسف الحويك** وعند الاحياء من الفنانين ، امدّ الله باعمارهم ، يزيد بنا التفاؤل . فيوسف الحويك ، النحات اللبناني الوحيد ، اذا عدينا المحترفين ، كرّس نفسه للجمال ، فحمل صخور لبنان جمالاته ومعانيه وساهم في تهذيب الذوق الفني مساهمة فعّالة ؟ بيد انه عاد فتوخى العزلة بعد ان يئس او كاد من بلوغ الكمال في تهذيب الذوق العام . واذا فاخرنا بنتاجه فنحن انما نفاخر بفنان لبناني عالمي ، على تجنبه التبسط في التأليف .

**عمر الانسي** وعمر الانسي فنان جمالي جرىء، يرى ما لا يراه العاديون، فيخرجه، فاذا بالذي يراه اجمل مما يراه العاديون ! مؤلف في تركيب الصورة واستعمال الالوان ، يجمع بين عدم التطرف في الخروج على الكلاسيكية ، وبين ما في جدة الحديثين من حسنات . طابعه معروف ، انسي في الاخراج ، لبناني في الموضوع ! فاذا عدّ بين القيم اللبنانية فلم يمدح الا بالواقع الذي فيه .

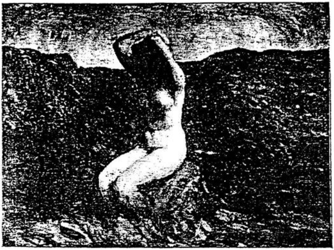
**قيصر الجميل** وكذلك الشيخ قيصر الجميل، فهو المؤلف في الجمال وفي المعنى ، خياله الشعري في خدمة ريشته والوانه، وتفكيره الفلسفي ايضاً ، والوطني بصورة خاصة ، لا يلتفت الى الوراء الا بنسبة ما فيه من حافز للوثوب . في كلاسيكيته انطلاق كلاسيكي ؟ وهو يحمل على كتفيه هم التوجيه الجمالي في البلاد ، وهمّ كل توجيه للبلاد فيه ذرة من الخير الانساني .

**صليبا الدويهي**

وصليبا الدويهي ، باني لبنان جمالا فوق الجمال ، طابعه كلاسيكي لبناني جمالي ؛ انيق في الوانه ، انيق في اختيار مواضيعه . عرف كيف يجمع بين قداسة لبنان وجمال ارضه ومعانيه ، فاتت مجموعة انتاجه لبنانا يمجد لبنان .

**مصطفى فروخ**

ومصطفى فروخ ، وقد راعيت الابجدية في ترتيب الاحياء ، يجيء في آخر البحث خاتمة طيبة . اخلص للفن وكرس نفسه من اجله ، تدعمه موهبة ويدعمه ذكاء ، نقي الريشة والالوان ، معتدل بين الكلاسيكية والجنوح المستحب ، من مستوى الفن في ارقى عواصم الفن ، فكأن النهضة عندنا مكتوب لها ان تقوم على دعائم اربع لكي يجوز الارتفاع ، دون خوف من عرج او انحناء ، فعسى ان يكون هذا المعرض الذي قدمته لنا وزارة الفنون الجميلة صورة صادقة للقصر الذي نبنيه ! وبناء المجد في لبنان ترميم لا بناء . . .



لوحة جبران خليل جبران

الخيبة

داود القرم



صورة البطريرك الحبيشي
للرسام داود القرم وهي
على الطريقة المعروفة
« بالباستيل »



لبنانية حول سنة ١٨٦٠

داود القرم




القديس يوحنا الرسول
ينظر الى المصلوب او «الايمان»



صورة راهب او «الرجاء»

داود القرم



صورة رمزية للانفس المطهرية ويبدو فيها الالم والرجاء



القديس يوحنا المعمدان وهو يشير باصبعه الى المسيح

جبران خليل جبران

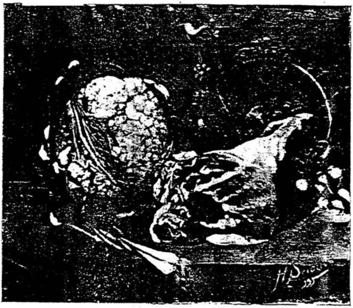




حسناء ذات الشعر الاشقر



حبيب سرور



طبيعة هادئة



حالمة

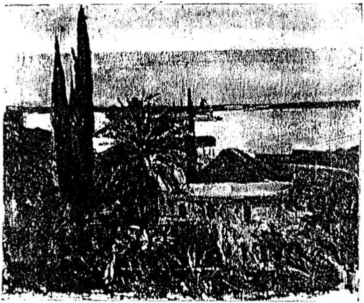


كاهن الضيعة

رطاروف فاضل



كما رسم ذاته والى جانبه « بيروت من نافذتي »



خليل الصليبي



لبناني من بطلون



ولبناني من الشذيف



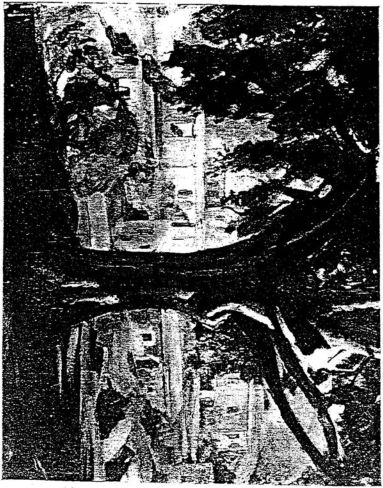
مستحمة



« راحة »



يوسف الحويك



عين زحلتا

عمر انسي



شيخ مسن من حراجل



بدويات

## قيصر الجميل







لوحات نسائية



ورود بيضاء



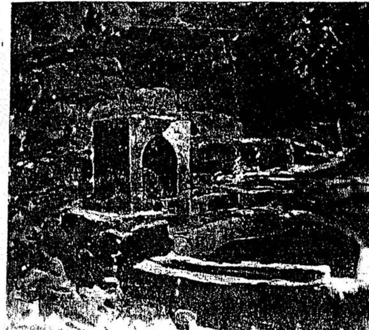
غادة الفراء

مليا الدويهي



الناطور





صليبا الدويهي

عين سبار و قروية تحيك الصوف

## مصطفى فروخ



ابو جرجس من بكفيا

# ثياب الشَّرْب

بقلم حبيب زيات

لم ينته الينا من اسماء المنسوجات الرفيعة التي كانت تصنع في الشام ومصر والعراق واليمن وبلاد فارس، ويتجمّل بها الملوك والرؤساء والاغنياء، الّا الفاظ معدودة اغفلت المعاجم اكثرها، وقلَّ من تعرَّض لذكرها، كالشَّرْب، انفرد الثعالبي بتفسيره، ونصَّ على انهُ ما رقَّ من الكتان[1]. واكثر ما كان يعمل بمصر لتوفّر زراعة الكتان فيها، ومن مُدنها التي اختُصَّت به الاسكندرية ودمياط ودبيق وتنيس وشطا وأبوان، وابوان هذه « مدينة كانت قرب دمياط كان اهلها نصارى ويعمل فيها الشرب الفائق فيُنسب اليها فيقال له بونيّ على غير لفظه »[2]. واشتهرت به ايضاً عدن في اليمن حتى « كانت شرويها تُفضَّل على القصب. »[3]

ويعرف من الشرب نوعان ابيض وملوَّن، وكان يكون ساذجاً او مُذهباً ويُطرَّز بثلاثة فتتضاعف قيمته جداً، ويدخل احياناً في طرازه الحرير والغزل، وقد اشتهرت به الاسكندرية خاصة شهرة طائرة في كل الامصار كشهرة اكثر ما كان يُحاك فيها قديماً. قال المقريزي: « الثياب المنسوجة بالاسكندرية لا نظير لها وتحمل الى اقطار الارض، وفي ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عُمل ثياباً يقال لها الشرب كل زنة درهم بدرهم فضة، وما يدخل في الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة »[4]. ومن احسن ما عثرنا عليه من وصف الشَّرب قول شهاب الدين العمري:

« اراني خواجا جمال الدين الفاخوري مقاطع شرب ابيض من الصنف المدرش استعملها بالاسكندرية على ان يقدمها للسلطان ابي سعيد كأنها جناح

---

١) فقه اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ٢٤٣

٢) معجم البلدان ١ : ١٠١

٣) احسن التقاسيم للبشاري المقدسي ٩٨

٤) الخطط ١ : ٣٦٣

الزنبور لا اظن انـه يعادلها في الدنيا قماش . قال انه استعملها ويقوم عليه كل مقطع منها ساذجاً بسبعمائة درهم وَرِقاً ويقوم طرزه وهو ساذج بمثل ذلك فتقوم جملة المقطع الواحد بالف واربعمائة درهم ورقاعها سبع مائة درهم نقرة ليس فيه الا الكتان وما فُتل من الحرير في طرزه . على انه لا يكون غالب الطرز الّا من الكتان فان الابيض منه لا يكون من الحرير ابداً ومنه تكون الكتابة وهي جلّ الطراز . وقال لي ان الكتان يباع الدرهم منه باكثر منه . واما ما يدخل في الطرز فيباع نظير وزنه مرات عديدة . قلت وهذا الشرب هو الذي تفوق به الاسكندرية البلاد اكثر من بقية ما يعمل فيها من القماش على اختلاف اجناسه وانواعه . »[1]

ومن اغرب ما كان يُعتقد فيه بدمياط ما رواه ياقوت عن الحسن بن محمد المهلبي قال : من ظريف امر دمياط في قبليها على الخليج مستعمل فيه غُرَف تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل ثياب الشرب فلا تكاد تنجب الا بها فان عُمل بها ثوب وبقي منه شبر ونقل الى غير هذه المعامل علم بذلك السمسار المبتاع للثوب فينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب عليه.»[2]

واغلب ما كان يتخذ من الشرب، فيما وقفنا عليه ، الاقمصة والمناديل والعمائم الفاخرة والمعاجر وقوارات الصواني والاكفان ، وفي المغرب عصائب للنساء تسمى من اجله « شربيّة »[3]. وكان « يعمل في شطا الشرب الرفيع الذي تبلغ قيمة الثوب منه ثلثمائة درهم ولا ذهب فيه »[4]. واشتهرت دبيق من قرى دمياط بالعمائم الشرب الملونة « وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل . وحدثت هذه العمائم وغيرها في ايام العزيز بالله بن المعز سنة خمس وستين وثلثمائة الى ان مات في

١) الثالث من مسالك الابصار ، باريس ٢٣٢٥ ، ص ١٦٢ – ١٦٣

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٠٣

٣) Dozy : *Dictionnaire des noms des vêtements chez les Arabes*, p. 219

٤) عجائب المخلوقات للقزويني ، طبعة وستنفلد ، ١٢٩

شعبان سنة ست وثمانين وثلثمائة »[1] . ولما مات برجوان الخادم وكان خصياً ابيض رباه في دار العزيز بالله « وجد الحاكم في تركته مائة منديل يعني عمامة كلها شروب ملونة معممة على مائة شاشية »[2] .

وقد يُعجب جداً من طول العمامة مائة ذراع ، ولكن اذا تُذُكّر ان الشرب كان احياناً برقة جناح الزنبور ، كما تقدم من وصف شهاب الدين العمري ، لا تكون العمامة منه اشد هولاً من عمائم بعض القضاة التي كانت تملأ صدر المحراب . وقد تناقص هذا الطول حين كان عمارة اليمني الشاعر بمصر ، ولما زار علي بن الزبد لوداعه صادف عنده رسولاً له « كان بدمياط يستعمل شروباً قال : فدفع لي ما وصل اليه في تلك الساعة شقة خزائني ولفافة وتلثيمة طولها ثلاثون ذراعاً رقم الجميع نسجة واحدة »[3] . يريد بالتلثيمة العمامة التي يردها الرجل على انفه ويتلثم بها . ولعمارة قصيدة مدح بها محمد بن شمس الخلافة وهو بدمياط ، واستهدى منه عمامة شرب جديدة وكتب له فيها :

فأنفذ لي باطول من حسابي اذا أُحضرتُ في يوم القيامه
ولا تكُ يا خطير فدتك نفسي قديمةً مدّق لفت قُدامه
وأرسلْها وختم الشرب فيها كخودٍ فوق وجنتها عرامه
كأن بياضها وجهٌ نقيٌّ وحسن الرقم فوق الخد شامه[4]

وقوله ارسلها والختم فيها اشارة الى خاتم الشرب والدبيقي الذي كان يضعه عامل الديوان على كل المقاطع بعد اداء المكس . وقد عدّ المقريزي في جملة مكوس مصر الف وخمسمائة دينار كانت تتحصل منه[5] . ومن الشرب ايضاً معاجر كانت تُعلّق على الرماح ذكرها المقريزي في الخطط فقال :

« وفي العشر الاخير من ذي الحجة في كل سنة ينتصب كل من المستخدمين بالاماكن لاخراج آلات الموكب من الاسلحة وغيرها . . . ثم يخرج

١) الخطط للمقريزي ١ : ٣٦٥
٢) « « ٣ : ٥
٣) النكت المصرية لعمارة ١٤٦
٤) « « « ١٣٦
٥) الخطط ١ : ١٦٨

من خزانة التجمل وهي من حقوق خزائن السلاح القصب الفضة برسم تشريف الوزراء والامراء . . . وهي رماح ملبسة بانابيب الفضة المنقوشة بالذهب الّا ذراعين منها فيشد في ذلك الخالي من الانابيب عدة من المعاجر الشرب الملونة ويترك اطرافها المرقومة مُسبلة كالصناجق »[١]

« وفي يوم فتح الخليج . . . صار يستعمل في الطراز . . . برسم تغطية الصواني عدة من عَراضي دبيقي ثم قوّارات شرب تكون من تحت العراضي على الصواني مفتح كل قوارة منهن اربعة أشبار . . . ولقد بيعت عدة من القوارات الشرب فسارع التجار العراقيون الى شرائها ونهاية ما بلغ ثمن كل واحدة منهنّ ستة عشر دينارًا . »[٢]

وممن كُفِّن بثياب الشرب الوزير يعقوب بن كلّس واختير له منه ماكان مذهبًا من عمل دبيق .[٣]

ونظرًا لرقة الشرب ونعومته كانت العرائس تؤثره للجلاء ، ومن الابيات الشاهدة بذلك قول عبد الصمد بن المعذّل :

ثم اجلوك كالعروس على الشر ب غادى في مجسد مصقول[٤]

ومنه اخذ شرف الدين بن حبيب في مجلد له سماه الشذور وجمع فيه مقطعات شعره ، قوله في تاجر :

يا حسنه حين يُجلى بالشرب فوق السرير[٥]

ولا ريب انه كان يعمل منه نوع خاص كانت تلبسه العساكر من الامراء وغيرهم في دولة المماليك ، وهو ما اشار اليه المقريزي بقوله : « كانت العساكر من الامراء وغيرهم تلبس المنوّع من الكمخا والمخمل والاسكندراني والشرب . . . »[٦] ومن ارغب الناس في الشرب اهل العراق لقول البشاري

١) الخطط ٢ : ٢١٥
٢) « ٢ : ٣٥٦
٣) « ٣ : ١٠
٤) الاغاني ١٢ : ٦٧
٥) تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه ، بريتش موزيوم Add. 7335 f° 223ᵛ
٦) الخطط ٣ : ٣٥٢

المقدسي: « اقليم العراق من رسومهم التجمل والتطيلس... ولبس الشروب »[١] ومنها « طيلسان شرب اسود وهو الذي يسمى بالمغرب الإحرام »[٢]

وكان في مصر قيسارية تدعى قيسارية الشرب بشارع القاهرة تجاه قيسارية جركس[٣]، وكان بدمشق ايضاً قيسارية شرب، ومن تجارها المذكورين علاء الدين علي بن بدر الدين الاربلي سمسار التجار البغداديين توفي سنة ٧١٧ / ١٣١٧.[٤]

---

١) احسن التقاسيم ٩٨

٢) رحلة ابن جبير ٥٠

٣) الخطط ٣ : ١٤٠

٤) تالي وفيات الاعيان لفضل الله الصقاعي، باريس ٢٠٦١، ص ٨٤

# معهد الآداب الشرقية

بدأ المعهد منذ السنة ١٩٤٦ — ١٩٤٧ باعداد الطلّاب الى امتحانات الليسانس الرسمية في الادب ، مع احتفاظه بامتحاناته الخاصة المؤهلة الى نيل شهادات الدبلوم في مختلف فروع الآداب الشرقية. فكان عليه ان يقسم منهاجه قسمين ، يُفصّل في الاول منهما موادّ شهادات الليسانس ، وفي الثاني موادّ التعليم العامة :

## منهج شهادات الليسانس

### ١ — التاريخ والاثريّات في سورية وفنيقية

ا — الثقافة الهيلينية في سورية وفنيقية .

ب — الجيش الروماني في سورية

ج — الامبراطرة السوريّون

د — المسيحية في سورية حتى الفتح العربي (٦٣٦)

### ٢ — درس اللغة العربية

المؤلّفون

ا — سيبويه : الكتاب (طبعة القاهرة)

ب — السيوطي : المزهر (طبعة القاهرة في مجلدين)

الموضوعات

سؤال عــام في القراماطيق والعروض في العربية الفصحى ، وفي خصائص اللهجات السورية — اللبنانية

### ٣ — الادب العربي

المؤلفون

النابغة الذبياني (الروائع ، بيروت ، ١٩٣١)

سيرة ابن هشام (طبعة وستنفلد او طبعة القاهرة)

المسعودي : مروج الذهب (طبعة باريس او طبعة القاهرة)

الغزالي : المنقذ من الضلال ( طبعة باريس او طبعة القاهرة او طبعة دمشق )
ابن خلدون : المقدّمة (الفصول المتعلّقة بالفقه) ( طبعة باريس او طبعة القاهرة )
الجاحظ : كتاب الحيوان ( الروائع ، بيروت ١٩٤٢ )
المتنبي : الديوان ( الروائع ، بيروت ، ١٩٣٧ )
سليمان البستاني : تعريب الالياذة ( طبعة مصر )

الموضوعات

ا — فنون الشعر الجاهلي .
ب — التاريخ على عهد العباسيين . اصوله . اهم المؤرّخين ، اساليبهم وقيمتهم .
ج — اصول الفقه .
د — « الادب » : تحديده ، اصوله . مركزه في الآداب العربية والحياة الاجتماعية على عهد العباسيين .
ه — النقد الادبي والادب العربي المعاصر .

## ٤ — الدروس العملية

الموضوعات

سؤالان — احدهما باللغة الفرنسوية ، والثاني باللغة العربية الفصحى احد الموضوعات التالية :

ا — جغرافية سورية الوسطى
ب — درس مدينة كبيرة من مدن الشرق الادنى : القاهرة ، دمشق ، حلب
ج — البدو
د — الفنون الاسلامية الصغرى

# منهج التعاليم

## ١ — اللغات والآداب السامية[١]

ا — اللغة العربية

دروس وتمارين عملية للاب فليش

١) دروس اللغة العبرية واللغة السريانية ؛ يلقيها الاب بولس موترد اليسوعي ، في المعهد الاكليريكي

ب – الادب العربي

١٥ محاضرة للاستاذ فؤاد افرام البستاني:

الفنون الادبية في عصر النهضة

ج – تاريخ الفلسفة العربية

١٥ محاضرة للاستاذ خليل الجرّ :

مصادر تاريخ الفلسفة العربية

## ٢ — تاريخ شعوب الشرق الادنى

ا – تاريخ سورية وفنيقية قبل عهد الاسكندر

دروس وتمارين للامير موريس شهاب

ب – تاريخ سورية وفنيقية وآثارهما في العهد اليوناني – الروماني

دروس وتمارين للاب رينه موترد اليسوعي

ج – عناصر لدرس علم الاجتماع الاسلامي

١٥ محاضرة للاستاذ حسن قبلان :

تاريخ الحضارة العربية

دروس للاستاذ فؤاد افرام البستاني :

١ – المصادر

٢ – التطور السياسي والثقافي في الشرق الادنى

٣ – التطور السياسي في افريقية الشمالية ؛ للاب دالترني اليسوعي

## ٣ — اللغة والآداب الارمنية

دروس وتمارين للاب ميصريان اليسوعي